هدية الى سيدي المحترم جناب المسيو مانولى فضاماطو

رواية

عوامل الشجون في تاريخ ابن طولون

(تأليف)

أحمد أفندي حقي

وهي رواية تاريخيه ادبيه غراميه

(طبعت بمطبعة النهج القويم بجوار السلطان الحنفي)

سنة ١٣١٥ هجريه

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لك ياباريء النسمات . ومبدع الكائنات . على ان هيئت للهمم جوبا لمفاوز المعقولات والمنقولات . وبسطت للعقول معاني التصورات والتصديقات . فشكرا لك منحتنا منحاً لا يكاد يحصرها الحساب . وأتممت علينا نعما تقف دون احصائها اقلام الكتاب . وجعلت العصور تتعاقب وتتوالي . وماجرياتها تمثل عن غابر لحاضر يتغالى . سبحانك لا نحصى ثناء عليك . ولم تكن لنا مندوحة عن التسليم في كل الامور اليك . فأنت المبدىء والمعيد . والرقيب والشهيد . اقتضت حكمتك اختلافا في العالم اجناساً وأنواعا . وتفاضلا سطرت انامل اقتدارك على صفحاته ابداعا . فكرمت بني آدم وفضلت بعضهم على بعض . بعد ان فطرتهم على فطرتك وجعلتهم سبب عمران الارض . وسخرت لهم ما بين أيديهم واطلعت فى سماء وجودهم طوالع الطبيعة . فاستهدت نشآتهم بها واجتذبتهما عواطف رشدك البديعة . ولما تعلمه من أن نظام هاتيك العوالم يتوقف على السنن القويم . والشرائع المعتدلة المفصحة لنتائج الاعمال من صحيح وسقيم . ولا يكون ذلك الا بوازع تطلبه الملكة النظامية . والهيئة القائمة العمرانيه . تخيرت الاخيار . وسننت سنن الاستبصار . واصطفيت انبياءك وابثث ما أوحيت

اليهم برسل ملكوتك الكرام . وكان اولهم بالمعني هو اشرفهم في الختام فنصلي عليه ونسلم فهو القطب الذى دارت على رحا اعتداله حركات النظام وانتهت اليه كل فضيلة يتنافس فيها ذووا الهمم العالية ودعاة الاحكام صلاة وسلاما هما دستور صالحات الاعمال . وشعار المستولين للبركات في الاحوال. يعمان آله واصحابه الابرار . وكل تابع اجتذبته عوامل الاجتباء والاختيار (امابعد) فلما كان علم التاريخ يجب ان يكون الشغل الشاغل لهمم المتدبرين . اذهو تمثيل أمام انظار الحضار لاعمال الغابرين . وجب علينا ان نلج بابه . ونتخيرلبابه . علنا نقف على جدوي . ترفع ألم الانين والشكوي . فقد خلت القرون وكلها تشهد بفضل الامم الحية فيها . النازعة الي درىء المفاسد وتلافيها . واقرب عصر لهذا العصر المفعم بعجائب التصرفات . والمكفهر جوه من طوارىء الكوارث المدلهمات . هو عصر الطولونيين الذى حدثنا التاريخ عن شامخ مجدهم فيه وما كانوا عليه مما لو ذكر لنفد المداد وحفت الاقلام وبما ان اشهر الحوادث هو أفعل في النفوس اهتماما واجدر بالتاريخ اعمالا واحكاما فقد جادت قريحة هذا العاجز القريحة باستخلاص خلاصة لذلك العهد الطولوني جعلها كرواية تمثل امام العواطف الحية والاحساسات الشريفة ما هية حادثة ابن طولون العجيبة على نسق غريب بعبارات فصيحة يسهل تناول المعاني منها واستنتاج النتائج من حوادثها وأجل نتيجة تصح ان تكون ضالة الانسان المنشوده هي ان يحصل على معرفة الاسباب التي ترفعه الي المعالي وتدرج به في مدارج الكمال اذا كان متجرجده واجتهاده رابحا ولا يربح الا بالمثابرة على الاعمال المفيدة ومزاولة الآداب والتحلي بكريم الاخلاق

وجنيل الشيم وبالجملة فهذه رواية أدبية تاريخيه جمعت شتات ماجرى في عهد ابن طولون اقدمها بين يدي الادباء الالباء والفضلاء النبلاء مفرغة في قالبها الغرامى ومصوغة بيد جناح الي الفضيلة يقى الرزيلة والفضول ويشرحها مع الأدب في عدة فصول علها تحوز رضاء وقبولا واغفالا للهفوات التى تظهر فاني معترف بقصورى وضعفى ولكن أرجو أن يكون تطفلي هذا على موائد الادب مكسباً لي شرف الالتحاق بخدام الآداب سيما وان هذه الرواية هي باكورة اعمالي فلو كانت كما اعتقد لا تخلو من الخطاء فهو مغتفر تجاه عجزى وحداثة سني الذين يكفياني محامياً عنى أمام محكمة التناظر الأدبي

وما سلكت سبيل افراغها في القالب الغرامي الا لعلمى أن النفوس تطمح غالباً الي التفكه والتروح بالسوانح المزوجة بخواطر الغرام فخدمة للشبيبة قد قمت بهذا العمل رافعاً كف تضرعى لبارىء الخلق اجمعين أن يعفو عن سيآتى ويغفر زلاتي انه سميع بصير

سوانح تنبي عن قصور تقدمت أقدمها للمنصفين ذوى الفضل
واطلب عفوا من كرام اجلهم فانهمو النقاد في الصعب والسهل

-•-

الفصل الاول

مصائب قوم عند قوم فوائد

كن كيف شئت فان الله ذو كرم   وما عليك اذا أذنبت من باس
الا اثنتان فلا تقربهما أبدا   الشرك بالله والاضرار بالناس

في أواخر شهر رمضان المعظم سنة ٢٥٣ هجريه حينما كادت الشمس ان تحجب عن العيون شخصها ويخطف يد المغرب من يد المشرق قرصها . كنت ترى عجوزا شمطاء تهرول بسرعة غريبة في أحد شوارع مدينة بغداد التي كانت وقتها عاصمة الممالك الشرقية ومقر تخت الخلافة الاسلاميه تركض من شارع الى شارع ومن زقاق الي زقاق وقد قيل فيها

عجوز السوء لا يرحم صباها   ولا يغفر لها في يوم موت
تقود من السياسة ألف بغل   اذا حرنت بخيط العنكبوت

وكانت تلك العجوز تحدث نفسها بامور شيطانية مصممة على أعمال جهنمية خائفة من ذهاب الوقت خاشية من ضياع الفرصة حتي وصلت الى باب دار كبيرة في صدر زقاق صغير فوقفت أمامها وتناولت من هميانها جملة أوراق مع بعض قطع من الجلد فأخذت في اشغالها بدهشة عجيبة ودمدمت بلهجة غريبة ملتفتة يمينا ويسارا خشية رقيب أو مفاجيء يستطلع أعمالها الحائدة عن الاصلاح لما سيترتب عليها من فساد الحال واخلال النظام واضرار من لا يستحق تطوعا في سبيل أغراضها الفاسدة وسعيا وراء نوالها مكانة سامية لدى مستخدمها

لتلك الغاية ... ومن حسن حظ تلك الخبيثة كان الزقاق في تلك اللحظة قد انقطعت عنه الأرجل وعمه الخفوت والسكوت لان سكانه جميعا فى منازلهم منتظرون أذان الغروب كما هي العادة في شهر الصوم الي وقتنا هذا

ولما فرغت من أفعالها تلك الملعونة وحظيت بنجاح أعمالها السحرية ارتدت راجعة وهى تجر فى ذيول المكر متوكأة على عصا الخداع تتستر بذكر اسم الله زورا وتسبحه بهتانا الي ان اجتازت الزقاق وصارت في وسط الشارع العمومي فسارت الهوينا

وما كادت ان تمشي بضع خطوات حتى صادفها أحد المكارين يخطر بحماره ذهابا وايابا. فنادته تلك المحتالة وقفزت كالشباب صارت فوق ظهر الحمار بعد ان همست في أذن صاحبه ببعض كلمات رفع في خلالها عصاه الغليظة وأخذ يضرب بها حماره ضربات متواليات بدون ان ترجمه شفقة أو تمنعه مرحمة حتى صير هذا الحيوان المسكين يهرول من شدة الضرب وألمه (كما نشاهده كثيرا ونراه عيانا من هؤلاء الوحوش الكاسرة مع وجود بوليسنا اليقظ النبيه ... يرمقهم ضاحكا بفؤاد مسرور وقلب قاس أو بعبارة أخرى مع وجود تلك الحيوانات راتعة تحت ظل رأفة ورحمة — جمعية الرفق بالحيوانات — المقال بوجودها ......) وهكذا مازالا في كر وفر مسافة طويلة حتي وصلا جهة نهر الدجلة وصارا فوق جسره ناولت العجوز المكاري ثلاثة دراهم وصرفته حامدا شاكرا وظلت واقفة تلاحظه حذرا من وقوفه على حالها السيء وبعدها أخذت تسير بعجلة الي ان اقتربت من زورق صغير كان

ينتظرها بالقرب من الشاطئ، فانحدرت اليه من اعلى الجسر وركبت فيه بعد ان حيت قائده الهرم الذى قيل فيه

وشيخ فوق الارض يمشى	ولحيته تعادل ركبتيه
فقلت له لماذا انت محنى	فقال وقد رمى نحوي يديه
شبابي فى الثرى قد ضاع منى	وها أنا نابش دوما عليه

ولما أخذ الزورق فى شق المياه والامواج تلطم جانبيه قاصدا البر الثاني التفت الشيخ الى العجوز قائلا، لعلك ياسيدتاه تكونين قد فزت ظافرة ونجحت فى اعمالك التى كنت قاصدة لها

فضحكت العجوز حتي ظهرت انيابها وهزت اكتافها المعوجة بحالة لو نظرها القاريء فى تلك اللحظة لتعوذ من الشيطان الرجيم وقالت وهي طافحة بالسرور

نعم قد اتممت المرغوب وحق الملك المعبود وذلك برهان جلى علي سعد الامير برقوق لينال مقصوده المطلوب .... وسوف تسمع ايها الشيخ عن قريب ما سيحل بابنة الامير ﴿ يار كورج ﴾ تلك الجاهلة الباطرة للنعمة لرفضها زواج الامير (برقوق)

فتبسم الشيخ وقال لها وهو يطرد التيار بمقذافه . وياهل ترى ما السبب يا أختاه في تلك الكراهة مع كون سيدي الامير أجمل أهل زمانه فضلا عن ثروته الواسعة ومقامه السامي الذي ناله بواسطة أبيه الوزير الكبير سيدى الامير(بابكيال) : أهل تجد السيدة(جول)أعظم منه جاها وأبو صاحب الكلمة النافذة عند الخليفة ؟

فقرنصت العجوز قورتها ورقصت حاجبيها وقالت حاشا ان تحوز

تلك الفاجرة مثل الامير برقوق وهو فى هذا العصر رب الجمال ومليك الكمال

وبعد ان سكتت برهة قالت ولكن لابد من وجود مانع هناك سوف أظهره بقوة سحري وأذيق أباها العذاب ألوانا فى السجون .. ولولا ان الامير برقوق مشغوف بحب تلك الفتاة لكنت تسببت فى قتلها وقتل من يلوذ بها ....

وما كادت تتم تلك الجملة حتى اصطدم الزورق فى الشاطىء فانتبه الشيخ من سباته وربط زورقه وأنزل العجوز الى البر

فتركته بعد ان ودعته وسارت تقطع الارض بقدميها حتي وصلت دار الامير بابكيال واتجهت نحو الباب الغربي الموصل الي الحديقة وولجت منه قاصدة الكشك القائم بوسط تلك الحديقة

وكان الامير برقوق ينتظرها بداخل ذلك الكشك وهو متكيء على وسادة من الحرير وبيده (شبك) من الياسمين محلى بالجواهر النفيسة الكريمة ترصيعاً وتركيبا وينفر بدخان فيخرج من بين شفتيه مزوجا بلهيب الغرام وشرر الاشتياق الي معدن الظرف واللطف، وربة الادب والحسن غادة روايتنا السيدة جول ولسان حاله ينشد هذا التوشيح

ترى هل لليلي من آخر ترى هل لعشقي من ناصر أبيت أقاسى كروب الهوى

ونار اشتياقي لها شاجر واخفى هواها فى باطنى دليلا يترجم عن ناظرى

سأصبر حتى أنال المني وتحمد عاقبة الصابر

وأكتم وجدى وشوقي لها ولاأظهر الحب فى خاطرى

وما وقع نظره على العجوز حتي قام لها تعظيما على الاقدام وأخذها

من ذراعها فأجلسها على مقعد من الابريسم بجانبه ثم انه حياها وهنأها بسلامة الوصول وناولها أحد «الشبكات» مملوء بالدخان

وبعد ان استراحت برهة سألها بلطف عما تم وهو ممعن النظر في هيئتها ليستطلع من أحوالها علامات النجاح ودلائل الظفر والفلاح

فحملقت العجوز في وجهه وأدركت كنه قصده وعلمت ما جال بضميره فقالت ـ لقد تم ما كنا نتمناه ... وسوف يلتهب قلب الفتاة جول كما التهب الورق الموقد وتحيطها جيوش التخيلات بل وفي منتصف الليل تقريبا تدهمها الحدام المظلمة وتسلبها الاحساس وتجعلها مختلة الشعور فاقدة النظام فتصبح كالمجنون بل أضل سبيلا

فخفق حين ذكر ذلك قلب الامير واستولت عليه عاطفة الحب وسطعت من مقلتيه أشعة النداءة فقال وفرائصه ترتعد وجلا أخشى يا أماه انه بهذا السحر يذهب عقلها ويختبل رشدها فتصبح والحالة هذه مصابة بالمته السيء المضيع لطيب الحياة والجالب لكل شقاء فيها اذ بعد ذلك لا ينتفع بها ... فهذا أمر لا أرضاه ان يكون ولا أحب أن يقع ... لانها استرقت فؤادي واستلبت رشدي بل وهي الحاكمة على جميع عواطفي وروحي ... وأي ضرر يمسها لاشك يحزنني كيف لا وهي أعز على من نفسي ....

وما كاد يتم حديثه حتي أخذته العبره وانحدرت سيول الشوق على وجنتيه وارتمى بين يدى العجوز كالطفل باكياً وأنشد بين يديها بصوت تقطعه الزفرات هذه الابيات

لا تجعليني والامثال تضرب بي　　كالمستجير من الرمضاء بالنار

والله والله لاأنسى محبتها   حتى أغيب في رمس وأحجار
كيف السلو وقدهام الفؤاد بها   وأصبح القلب عنها غير صبار

ولما شاهدته تلك الخبيثة على هذه الصورة المبكية ضحكت فى سرها وأخذت تشجعه مظهرة اغتمامها وتكدرها وقالت بصوت مضطرب بعد ان تصنعت البكاء لانها كانت شديدة الحذق في التملق والمداهنة بارعة في فن الاحتيال ووقوع الشغب في الاحوال

ماعليك من باس أيها العزيز ولا تخف من ذاك ولا تجزع لان صرف تلك الخالة عنها هو من أهون الامور عندى وفي أى لحظة شئت أمنع التخيلات عنها وأزيل مايعتريها من الجنون الصناعي فتجلد فى مكافحة الزمن العنيد فانه غلاب سيما اذا أعانه العشق الشديد وتمسك بحبل الصبر مع الكتمان حتي تتم حيلتنا ونفرغ من أعمالنا

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة   فان فساد الرأى ان يترددا
وان كنت ذا عزم فأنفذه عاجلا   فان فساد العزم ان يتقيدا

فاستفز الامير هذا الكلام ووقف ممتقع اللون منكس الرأس وتحقق انه وقع فى عمل صعب المرام وطرق مفروسة بالاهوال ولا بد له من الحزم والتدرع بالصبر فقال بصوت خافت

ـ هل المدة المقررة للعمل تطول ؟

ـ كلا أيها الامير فانها لاتزيد عن ثلاثين صباحا وبعدها تنظر العجب حيث ترى محبوبتك لاتريد من الرجال سواك ..وذلك بفضل ما سأتلوه من الاسماء وما سأصطنعه من الطلاسم التي تعجز الشياطين عن فك رموزها وبطلان مفعولها .. فكن مطمئن الخاطر مستريح

البال واني أهنيك سلفاً على قرب الحبيب مع الهناء المتواتر والفرح العميم

وبعد ان تأملت هنيهة استأنفت الحديث قائلة : انما غرضي الوحيد ان تبحث لنا عن محل منفرد نجعله مركزا لاعمالنا وبيتاً حصينا لارصادنا وننتخب من الخدم من يكون صادقا أمينا يحافظ على أسرارنا ويساعدنا على بعض أعمالنا

فأجابها الامير باتمام ذلك عن قريب متعجبا من ثاقب آرائها مستغربا من حسن تدبيرها وانسر سرورا عظيما حينما تصور ان السيدة جول ستصير قرينته فى المستقبل...ولكن أثقل كاهله ومرت غمامة سوداء غشيت بصره وامتلكه الوسواس ودهمته الهواجس حينما نظر فى مرآة خياله فتشبح له منظر حبيبته المفجع يمثل أمامه دور الجنون المحزن

فترقرقت عيناه بالدموع وفاضت العبرات من أجفانه ولم يطق صبرا وركع أمام ربة الفتن وعجوزة المحن مستغيثا بها وأخذ يسترحمها قائلا

أشكرك ياأماه على تلك المساعدة الجليلة وعلى هذه الخدمة الشريفة التى لاأنساها مع مرور الايام وتكرار الاعوام ... ولكن لايمكننى ان أتكبد عذاب السيدة جول بل ولا أطيق ان تغوص في لجج الجنون هذه المدة الطويله

فأجابته العجوز بنظاظة حينئذ ما الغرض ؟

ـ الاوفق ان يكون غشيانها وانفعالاتها في مواقيت معينة فى مدى اليوم

ـ لاجرم ان محبتك شديدة وشغفك عظيم ؛

ـ كيف لا

أتاني هواها قبل ان أعرف الهوى   فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فوعدته العجوز باستدراك الامر وتعهدت له بما يسر خاطره ويريح ضميره وقامت متجهة نحو الحرم بعدان ودعته بجميل الثناء وشيعها الي الفناء

---*-*-*---

يادار ماصنعت بك الايام   لم تبق فيك بشاشة تستام

عج بي ايها القارىء بافكارك النيرة الى ذلك الزقاق الذي دنسته تلك العجوز باسحارها والي تلك الدار التي هيجتها بعد السكون ودهمتها بالاحزان والاتراح بعد السرور والافراح — كيف لا — وما انتصف الليل وانسدل الظلام حتى هاجت الدار وماجت بمن فيها واخذ سكانها في الصياح والولولة والبكاء والعويل حتي مطلع الفجر

وكانت هذه الدار للامير ياركوج اكبر حراس الخليفة وبالمصادفة كان غائبا عنها فى تلك الليلة المحزنه حيث كان بدار الخلافة يلاحظ حراسته ولكن لم يكد يصل اذنيه هذا الخبر المفجع حتي أتي مهرولا الى داره لينظر ما السبب ويتلافى امره وماوصل داره وسمع تلك الضجة والغوغاء حتي عرته نوبة اوهام وحيرة واستولت عليه الدهشة وأخذه العجب والاستغراب وسأل اول خادم صادفه عن هذا الحادث المشؤم

فأجابه وهو يذرف الدمع : لا نعلم ياسيدى لهذا من سبب ـ انما بعدان أغلقت الابواب واخذ كل من بالسراي النعاس واذا بتلك الضجة دهمتنا بغتة من داخل الحرم فانتبهنا برعدة مذعورين ومن ذلك الهول

مرعوبين نسأل عن الخبر ونستفهم عن السبب فأجابنا احدالخصي بأن السيدة الصغيرة عراها جنون

فلستحوذ على قلب الامير ياركورج جزع المهموم المغموم فؤاده وصعدعاجلاالي الحرم ليتحقق فحوي هذا الخبر بعد ان منع الجميع عن الصياح وزجرهم عن الولولة ودخل مقصورة ابنته فوجدهاعلى اسوء حالة حيث نظرها ممزقة الثياب مفككةالشعور تضرب في نفسها وتدب على الارض بقدميها ولولا ان والدتها وبعض الخدمه قابضون عليها لالقت نفسهامن نافذةالغرفه :

فانزعج الامير من حالتها واتذعر من هيئتها واقشعر جسمه من هول ذلك المنظر الذى يفتت الاكباد ويذيب المهج ولكن ثبت جاشه وأمر فى الحال والدتها المسكينة ومن معها بالخروج وتركه منفردا يحاول تثبيتها وتسكين اضطرابها

ولكن هيهات ان يفلح فانها مازادت الا اضطرابا وهياجا واعيته الحيل فقبض عليها بقوته والقاها علي فراشها وضغط عليها بركبتيه وطوقها بساعديه وصار يتلو بعض آيات قرآنيه وحكم نبويه هكذا ساعة من الزمن حتى اخذت السيدة جول في الهدو واخلدت الي السكون شيئا فشيئا واخيرا استغرقت فى النعاس فقام الوالد المشفق المحزون عنها وخرج من مقصورتها ولسان حاله يقول

احسنت ظنك بالايام اذ حسنت ... ولم تخف سوء مايأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعندصفو الليالي يحدث الكدر

الفصل الثاني

﴿ تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ﴾

واني وان اخرت عنكم زيارتي　　لعذر فانى في المودة اول
وما الود ادمان الزيارة من فتي　　ولكن علي ماف القلوب المعول

يجد القارىء بمسافة ساعه عن مدينة بغداد قلعة صغيره حربية وبها من الجنود ما يزيد عن الاربعمائه تحت قيادة شاب يافع يبلغ من العمر سبعة وعشرين حولا ولكنه طويل القامة عريض الاكتاف ابيض اللون تلوح على محياه الجميل دلائل النجابة والنباهة وتظهر من سحنته اللطيفة علامات الشجاعة والفراسة ويفوح من فطنته عطر الفضيله والعفاف

وكان فى تلك اللحظة جالسا متكئاً على مكتبته واضعاً يده على جبهته وهو غارق فى بحر من التأملات يتلاطم بلجج من الافكار يضرب أخماساً لاسداس

واذا بباب الغرفة يطرق فتنبه الشاب مذعورا واستيقظ من سباته مدهوشاً وقام نحو الباب وفتحه فوجد الطارق أحد الجند وبيده مظروف ناوله اليه بعد أداء التعظيم الواجب عليه

فأخذه القائد وارتد راجعاً مكانه بعد ان أوصد باب الغرفة وفضه بيد مرتعشة وأفكار مضطربة ومر بنظره على ماهو آت فيه

أيها المحب والمحبوب

بما ان الفرص مكنتنى لزيارتك والوقت أسعدني لمشاهدتك ورؤيتك فالرجا انتظارى

ج

فتبسم القائد عند تلاوته وانسر فؤاده وانشرح خاطره وزال مابه من الهواجس والوسواس وقام مسرورا فرحا قاصدا دولاب ملابسه وخلع ما عليه من الملابس الرسمية وارتدى بخلافها وخرج من الغرفة حتى وصل الى باب القاعه العمومي

وهناك استدعي وكيله والقى عليه بعض ما يلزم من التنبيهات وهمس له سرًا عن وجهته حتي اذا وردت أوامر مهمة يرسلها اليه عاجلا

ثم امتطي صهوة جواده مصطحباً معه كاتبه الخصوصي ونديمه العزيز (أحمد بن الواسطى) وأخذا يعدوان بسرعة ونشاط حتى وصلا الي مكان خال من المارة عامر بالسكوت قد ألبست أكمته حلة من الاشجار وفرشت أرضه ببساط من الازهار زهت به مناظر الطبيعة وتقلبت عليه الطيور البديعة و

اضواءه طبق المني وهواؤه | يشتاقه الولهان فى الاسحار
والطبع معتدل فقل ماشئته | فى الظل والانهار والأزهار

فجلسا تحت شجرة عالية من الياسمين تفوح منها الروائح الزكية بالقرب من خليج صغير تتاوج مياهه فيسطع منه بياض شفاف ينير ما حوله من الازهار والاثمار وامامهما مسلك ضيق ملتف بالاغصان والاشجار تكالله الدوالي والاعناب

. وطفقا يتجاذبان من الحديث اشجاه ويتسامران بالنوادر الادبية والحكايات الفكاهية والاشعار الغزلية مما كانت تجول بخاطرهما وتستحسنه اذواقهما

ولكن كانت نواظر قائدنا العاشق شاخصة على الدوام الي ذلك الطريق وكلما حرك النسيم مابه من الاشجار وتضاربت في بعضها الاغصان يرقص قلبه طربا ويخفق فؤاده فرحا

خيالك بين طابقة الجفون　　وذكرك في الخوافق والسكون
وحبك قد جري في العظم مني　　كجرى الماء فى ثمر الغصون
ويوم لا أراك يضيق صدرى　　وتعذلني العواذل فى شجوني
ايا من قد تملكني هواه　　وزاد على محبته جنوني
خف الرحمن فى وكن رحيما　　هواك اذاقني ريب المنون

خصوصا وكانت تلك الليلة حالكة في السواد مخيمة بالظلام فكان كلما شعر بحفيف خفيف أو أدنى حركة ظنها دبدبة اقدام لمحبوبته ومنية قلبه فيستيقظ بدهشة ويعر نظره بلهفة فلا يرى غير الظلام ولا يسمع خلاف دوي الاشجار وخرير المياه فينقبض قلبه حزنا ويذوب جسمه ولها حتي مضى الميعاد المحدود فتراكمت عليه الهموم والاحزان ودهمته الاكدار والاهوال وغاص في بحران الظنون تتنازعه عوامل الافكار وتروح به وتغدو اظعان الاوهام فى فيافى الحوادث وصار فؤاده يخفق ويروى عن الظن مدهشات العشاق فتارة يقول ما الذي اصابها في الطريق — عهدى بها الصدق وعدم الخداع — وما شمت منها يوما خليقة كذب فى الوعد فلا بد من حصول امر قد اوحي الي بهضمير حبي لها الصادق ما احلى التصافي والتلاقي بين المتحابين وما اصعب واخطب من تمزيق الشمل وتفريق ذات البين . أواه من صفو لا يتم وكدر ملم ولكن لا بد مع الشدة من رخاء ومع العسر من يسر ومع الضيق من فرج ....

رأيت الهوى حلواً اذا اجتمع الشمل ومراً على الهجران لا بل هو القتل
ومن لم يذق للهجر طعما فانه اذا ذاق طعم الحب لم يدر ما الوصل
وقد ذقت طعميه على القرب والنوى فابعده قتل واقربه خبل

وبعد ان لم يجد معه غير السكوت برهة غير وجيزة ثار في خلالها ثائر الهواجس وتأجج لهيب القلب فالتفت الي نديمه العزيز ورفيقه المحبوب وكان كاشفا له عن كنه أسراره عالما بجميع حركاته وسكناته قائلا

ماذا تقول وماذا تفتكر في هذا الجفا الذي أدنفني ؟

فأجابه بلطف ووداعة بعد ان قدح زناد فكرته : ان لذي دار في خلدي وتصوره عقلي اما ان يكون قد حصل انحراف في المزاج أو حذرا من عين ساهرة

— نعم هذا ما افتكرته أيضا ... ولكن أظن ان المانع خطير.. والسبب مهم جداً . قال ذلك وعيناه مغرورقتان بالدموع

— وأنا أظن ان الامر واه لا يستحق اشغالا للبال ... فازح عن ذهنك كل تصور مخيف وفكر مؤلم

وكان أحمد بن الواسطي ابتكر تلك الجمل المزوجة باللطف والتسهيل ليخفف بها ويلات التأثر المحيطة بسيده حتى ظهرت ملامحها على محياه

وبعد ان تأمل القائد هنيهة قال أرشدني ما العمل لقد ضاق صدري وعيل صبري حيث خاب الامل بذهاب الوقت ولا يرجى مجيؤه بعد هذا الأوان

ـ هدئ روعك ياسيدى : فان الخطب سهل واصبر قليلا وانتظرني حتي أذهب لاستكشاف الحقيقه وأعود بما يسر خاطرك ويرتاح له ضميرك

فاستحسن القائد مانفوه به ابن الواسطى وأذن له بالرحيل مع سرعة العودة وعدم التهاون ....

وما كاد ان يفرغ من كلامه حتى سمع وقع أقدام ولمح زوالا قاصداً لهما بعجلة زائدة

فخفق قلب القائد وأبرقت أسرته ووقف شاخصا بعد ان منع ابن الواسطى عن المسير وما مضت لحظة حتي انكشف الخيال وظهر القادم واذا به أحد فرسان فرقته وبيده مظروف

فاختطفه القائد وأمعن النظر فيه بعد ان أمر ابن الواسطي باشمال فتيلة واذا هو أمر رسمي هذا نصه :

الى حضرة احمد بن طولون

بوصول هذا لطرفكم يلزم قيامكم تواً بمن معكم من الفرسان والتوجه بدون تهاون الي قلعة علاء الدين لتقوموا مقام حاميتها التى صدرت اليها الاوامر بالسفر الى البصره القائد العام

أبو الفتح

فما فرغ من تلاوته حتى كاد ان يغشى عليه ووقف صامتا كالمذهول لايعى ما يقول ولا يدرى ماذا يفعل وكأن حروف هذا الخطاب سهام خرقت صحيفة قلبه ومزقت سجف كبده

حوادث الدهر قد تأتي علي خطر　　فاحذر عواقبها تنجو من الضرر

واعددلهامن دروع الصبر سابغة   تقيك شدتها ذ ترمه بالشرر

ففطن من ذلك ابن الواسطى وعلم ما ألم بسيده وأسرع فأيقظه من دهشته بحذق ومهارة وقال بصوت جهور لينبه سيده من غشيانه ... الاوفق ياسيدي ان تقصد القلعة للتنبيه علي الجند بالاستعداد حيث الوقت أزف وكاد الفجر ان يلوح ... أما انا فاقصد المحل المعهود وبعدها ألحقكم بالقلعة فنكون انجزنا المرغوب وتحصلنا علي المطلوب

فوافق علي ذلك الامير ابن طرلون وتحقق ان الانتظار لم يجد نفعا فطلب جواده وامتطى صهوته ووخزه بقدميه ولكزه بهمازاته فانطلق كالبرق ينهب الارض ويقطع الطريق بخطواته المسرعه وكان اطلق من مقلتيه مع عنانه عنان البكاء والنحيب وهو في مساورة الافكار تحيط بفؤاده الاكدار حتي وصل الى القلعة فوجد جميع الجند على اهبة السفر مستعدين للرحيل

فاستولي عليه الاستغراب وسألهم عن الذى اخبرهم بأمر الرحيل: فتقدم اليه وكيل الفرقة وقال بعد ان حياه عن نفسه انه هو الذى اعلمهم وانجز الاشغال حيث ان حامل الخطاب افهمه بأمر السفر

فشكره الامير ابن طولون علي حسن اهتمامه وفي الحال امر بضرب طبل الرحيل فخرجت الجند بعددها وعددها خارج القلعه واصطفت بانتظام في ساحتها واستعرضها القائد وناداها بعدة حركات حربية فعلتها بترتيب حسن ونظام غريب واستمر الاستعراض حتى انكشف الضباب واخذت الشمس تجلي في الافق واذا باحمد بن الواسطى قادم بجواده وجسمه يرفض عرقا من عظم الركض! ولما قرب من الامير ابن

طولون همس له ببعض كلمات فى خلالها استنار وجهه وانقشعت همومه وصاح على الجند بنداء السير

فسارت الفرسان بقدم واحد على شكل مربع منتظم كل خمسين منهم تحت قيادة زعيم لهم وامام الجميع قائدهم الامير احمد بن طولون يخفق على راسه العلم العباسى الاسلامى وهو من الحرير الاخضر المطرز مكتوبا على احد وجهيه بخيوط الفضة { لا اله الا الله محمد رسول الله } والوجه الآخر (نصر من الله وفتح قريب)

وظلوا سائرين على هذا المنوال يقطعون البرارى والقفار الى ان اشرفوا على مرج فسيح الارجاء كثير الاعشاب فحطوا رحالهم واناخوا دوابهم ليستريحوا من عناء السير ووعرة الطريق وبعد بضع ساعات استأنفوا السير بجد ونشاط لان قلعة علاء الدين بالبعد عن مدينة بغداد مقدار يوم وليلة تقريبا

فقطعوا تلك المسافة وكانوا كلما اشرفوا على مركز مناسب يستريحوا فيه حتى وصلوا قلعة علاء الدين عند شروق شمس ثاني يوم فرأوا من بها من الجند على اهبة السفر ينتظرونهم بفروغ صبر

ولما تقابل الفريقان وحيا الجند بعضهما واستلم الاوامر القائد القائم من القائد القادم ترحل العسكر الذي كان مقيما بعد ان ودع القادمين وبعد الرحيل استلم الامير ابن طولون القلعة وفرق غرفها على جنده ووطنهم ومكن لهم في الاقامة وبعد ذلك قصد غرفته للاستراحة وبعد برهة وجيزة استدعى كاتبه ابن الواسطى وخاطبه قائلا . ايها الكاتم لاسرارى العالم بسريرتي واصرارى الم انه قد خامرتني الظنون

فيما أنبأتني عنه ... وهل حقيقة قابلت خادم السيدة جول (لؤلؤ) فحدثك بانه كان قادما علينا ليفهمنا بما ألم بسيدته من الانحراف الذي ألجأها الي التأخير فأجابه

ـ نعم قابلته ولكن ..... ثم نكس رأسه مطرقا الي الارض متفكرا فيما ستؤول اليه حالة الامير ابن طولون لو كشف له باطن الامر وأحاطه بكنه الحقيقة فصمم في سره ان يلفق حديثا مناسبا وجوابا مقبولا حتى لا يتعكر صفو سيده وصديقه ويقع في فخ الهموم والاحزان

ولكن الامير احمد بن طولون ماأمهله ليرتب ماخطر في باله بل صاح بغتة قائلا . مالي أراك تلعثمت في الجواب وصمت تلك المدة ... أظن ماأخبرتني عنه مقلوبا عن الحقيقة وماحدثتني به كان تمويها أجبني بالصدق وأفدني بالحق

ـ فما بعد لكن ...) ؟ ؟

فانزعج ابن الواسطي ورفع راسه مدهوشا بفرائص ترتعد وبدن يرتعش وبصر سيده مقلوب الهيئة متغير السحنة بوجه مكفهر وعينين شاردتين يسطع من بياضهما الشرر فزاد اضطرابه وتلفظ بصوت متقطع قائلا .

ماتظرت خا .... رايت خادما .... ذهبت الي ز .... فو .... لا بل ....

فلما راى الامير ابن طولون هذا الانذهال وسمع منه تلك الثرثرة الغير المفهومة لاح منه بريق الغيظ وحمي الدم في جسمه وانقلبت

مقلتاه في قمة راسه وقبض على كتف ابن الواسطي صارخا . هل جننت ؟ هل اختبل عقلك ؟ هل شاهدت امرا غير محمود العاقبة ؟

فاستشعر ابن الواسطي بارتباك الامر وصحا من غيبوبته وتأمل موقفه الحرج ومركزه المحدقة به الاخطار وندم على ما فرط وعلم ان الذي صدر منه جاء اشد ضررا على سيده كالمثل السائر (اتى ليكحلها فعماها) فما كان منه الا النطق بالحقيقة حيث قال

عفوا ياسيدي وعذرا ... فاني ما اخفيت الحقيقة الا اشفاقا بك ورأفة على جسمك اللطيف خصوصا وكنت وقتها على اهبة السفر فخشيت الفضيحة وانكشاف السر ... وبعد ان تفكر مليا اردف ما فاه به مستدركا على مافرط منه وترتب عليه هذا الاضطراب العظيم بقوله

وحيث لا بد من احاطتك بهذا الحادث المشؤم فاعلم اني لما تركتك اطلقت لجوادي العنان حتي اقتربت من زقاق الامير ياركورج فتركت الجواد في محل خفي ودخلت الزقاق فوجدته في هرج ومرج مزدحما برجال اكثرهم خدمة الامير فدهشت من هذا الحال المريع واردت ان استطلع الحقيقة فاقتحمت ذلك المزدحم واختلطت بالجمع وقربت من باب الدار لانظر ما الداعي لهذا التجمع فسمعت صياحا وولولة تفتت الاكباد وتذيب الجماد واستفسرت عن الخبر من احد الخدم فأجابني والدمع ملء عينيه ان بنت الامير اعتراها جنون ..

هنا امتقع لون الامير ابن طولون وعلاه الاصفرار ومرت على وجهه غمامة سوداء غشت ابصاره

ثم اتبع حديثه ابن الواسطي قائلا . وما سمعت هذا الخبر الا

وانقضت عليّ صاعقة الكدر حتى من ألم الانفجاع كادت تتلفني وعزمت على الرجوع واذا بضجيج ومشاعل مضيئة واناس وافدين بسرعة نحو الدار

فانزويت بجانب حائط وتأملت في القادمين واذا به الامير ياركورج محاطا بكبكبة من رجاله وحاشيته واخوانه وظليت ارقبه لكي ارى ماذا يتم ..ولكن بدخوله سكنت الضجة وانقطع الصياح وقفلت الابواب وصرت وحيدا في الزقاق

فما كان مني الا ان ارتدّيت راجعا خصوصا وقدخفت من ذهاب الوقت وضياع الفرصة وقدمت عليكم فاعلمتك بغير الحقيقة لكي لا ينزعج خاطرك ويتألم فؤادك ويترتب امر خطير يعوقنا عن المسير

وما كاد ابن الواسطي يتم جملته الاخيرة حتي سقط الامير ابن طولون سقطة قتيل خائر القوى منحل العزائم

فاندهش ابن الواسطي واقشعرّ جسمه وتغير لونه من هول هذا المنظر المزعج وتدارك الامير واحتضنه وصار يوقظه ببعض المنبهات بعد ان اجلسه على مقعد بالقرب منهما حتى افاق من غيبوبته وقبض على قلبه بيده واخذ يبكي بكاءمرا وينزف الدمع حتي ابتل ما تحت قدميه

فلم يطق ابن الواسطي ان ينظر سيده الشجاع على هذه الصفة المحزنة وبهت في وجهه المعليّ بالاصفرار قائلا ! خفف عنك ياسيدي هذا الويل وارفق بجسمك الذي كاد ان يذوب ءساً وتوجعاً واطرح من فؤادك تلك الاحزان المسقمة وامح عن ذهنك تلك الافكار المقلقة فربما تنقشع تلك الهموم وتزول هاته الغموم ولربما عسر اعقبه

يسر وضيق اعقبه فرج

اذا ضاقت بك الاحوا ... ل فكر في ألم نشرح
فعسر بين يسرين ... اذا املته تفرح

فتنفس الامير من طوابق الصعداء وتأوه بقلب مجروح وسرح بجواد فكره في ميدان المدهشات مناجيا نفسه بما هو آت

الهي لقد ضاقت بي الدنيا وصرت هدفا للمصائب وعرضة للاحوال والاخطار فانقذني برحمتك يارحيم وفرج كربتي يا كريم ياحليم انك على كل شيء قدير وبالاجابة جدير

قد ضاق بي سجن الهموم ... فهل لاسري من سراح
يارب ضقت بوحدتي ... ذرعاً وبالكرب المتاح
فاكشف كروب النفس او ... فأذن لروحي بالرواح

—********—

الفصل الثالث

ان الطيور على اشكالها تقع

قلوب حشوها حسد وغل ... وأضغان كنيران الزناد
فما هذا اتفاق بل نفاق ... كصلح العامرية بالفساد

تركنا الامير برقوق في الكشك متفكرا فيما امرته به العجوز الساحرة التي دخلت الحرم وهي متوكأة على عصا الوقار متسربلة برداء العفاف حاملة لواء الصلاح تظاهر لمن رآها انها الهة في الحكمة والزكاء كريمة الحسب شريفة النسب

فقابلوها بالتعظيم والاجلال كعادتهم خصوصا والدة الامير وشقيقته فقد قامتا لها على الاقدام وقابلتاها بالترحاب والبشاشة والاشتياق وهما غافلتان عن نواياها الخبيثة وافعالها المحرمة التي ستكون السبب في هدم تلك العائلة ودك راحتها

ولو علموا ما كنت ضمائر تلك الملعونة لصفعوها بنعالهم وطردوها من دارهم كيف لا ... وكم بيوت اخلقتها وعقول أتلفتها بالاغواء والخيانة تجتذب بشراك مكرها كل من اعتقد فيها لو تسلبه عقله باقاويل المداهنات المحفوفة بالفكاهات

اياك تغتر وتخدعك بارقة من ذي خداع يري بشرا والطافا

وفي صباح ثاني يوم حينما كان الامير برقوق يتمشى ذهابا وايابا في ساحة الحديقة وهو غارق في لجج الهموم يتجاذبه تيار من الافكار اذ لاحت منه التفاتة فنظر احد خدمة الحديقة (جنايني) يشتغل في ترتيب الاشجار وغرس الخضراوات فناداه مستفهما منه عن دار صغيرة تكون قريبة من تلك الجهة ومنقطعة عن المارة

فأجابه الخادم بوقار واحترام انه لا يوجد بعموم هذه الجهة ما يوافق الامير ويكون حسب طلبه غير داره التي بجوار النواعير لانها منقطعة عن المارة وربما لا يطرقها خلافه

فسر الامير ولاح له بريق البشر وقال هل لك عائلة بها ؟

—كلا ياسيدى ليس لي بها أحد بل هي تحت امر سيدى

فزادت مسرة الامير واخرج من هميانه عشرين دينارا و ناولها اياه بعد ان طلب منه ان يستحسن غرفة بداره ويفرشها بهذا المبلغ وليعد عاجلا حيث انه في انتظاره

فخرج الجنايني تاركا سيده حيث كان يجول بالحديقة وسارع السحاب في وصوله الى السوق وقيسارية الموبيليات واشترى بعض الاثاثات ولوازم الجلوس من مقاعد ومنصات واوصلها داره بعد ان نظفها ثم ارتد راجعا قاصداً سيده الامير فوجده بداخل الكشك وبجانبه العجوز الساحرة وهما يتحادثان ويتشاوران فأخبره بما تم

فقام الامير وبصحبته العجوز وامامهم الجنايني وخرجوا من باب سر صغير وساروا قاصدين الدار الجديدة حتى وصلوها فلما رأتها العجوز كادت تطير من الفرح لانها جاءت حسب مطلوبها وغاية مرغوبها

وحقيقة كانت تلك الدار اشبه بمربض لصوص ومختفى من حيث بعدها الشاسع عن جميع ما جاورها من المساكن ومنظرها الغريب لانها كانت متوسطة بين تلول صغيرة ملتفة بغابة كبيرة يجد الداخل فيها طرقة طويلة مظلمة موصلة الي ساحة صغيرة بصدرها باب منخفض يدخل منه الانسان بكل صعوبة فيري مدرجا على شكل حلازوني ينتهى الى طرقة ذات زوايا ضيقة ولفتات صغيرة في آخرها منحنى طبيعى من الصوان يصل الصاعد عليه الي صالة صغيرة بها غرفتان يسقط اليها الضوء قليلا من نوافذ صغيرة مثقوبة من اعلاها

فلما وصل الامير الي تلك الصالة استغرب من هذا الشكل العجيب والتفت الي العجوز قائلا . أظن يا أماه لو بحثنا في عموم البلدة وفتشنا جميع الاماكن لا نجد مثل هذه الدار العجيبة حتى سجن الحكومة الموسوم (بالجب الاسود) فتبسمت العجوز وقالت له لا بد لتأسيس هذه الدار على هذه الصفة شأن غريب وحديث عجيب ثم التفتت الى الجنايني قائلة . لعلك تكون

عالماً بقصتها فتقصها علينا

— كيف لا اعلم وهي مسقط رأسي وصنع اجدادي بل وتذكاري العزيز

— اذاً فشنف آذاننا بقصتك واطربنا بدرر حديثك ؟

فابتدأ الجناني يحدثهما بقصته وسرد تاريخ حياته الدال على سفالة اصله بعد ان جلسوا بالغرفة المفروشة قائلا

اعلمي ايتها السيدة حماك الله ان جدي كان رئيس عصبة من اللصوص مركبة من ثلاثين رجلا وكانوا اسسوا هذه الدار واتخذوها مأوي لهم يلتجؤن اليها وقت الضرورة وعند المبيت حيث كانت هذه الجهة غير آهلة بالسكان بل كانت جبالا وتلولا متخلفة من بقايا مدينة طمست آثارها ودرست معالمها تقلبات الدهور وكوارث الاعوام

وكانت تلك العصابة من اشقي المخلوقات وافسد العباد تجول في الخلوات والصحاري متربصة لكل قافلة دنت آجال اصحابها فتسطو عليها وتنهبها بعد قتل رجالها وسبي نسائها وكثيرا ما بحثت الحكومة عن تلك العصابة لاستئصال شأفتها وارسلت الجند المرة بعد الاخرى لاقتفاء اثرها ولكن كانت تعود بخفي حنين ولا ينالها الا الفشل والخذلان

وبعد مضي زمن توفي جدي فتخيرت العصابة والدي رئيسا عليها ومكثت على اعمالها الفظيعة مثابرة على الفساد واقلاق راحة العباد لغاية اوائل سنة ٢٣٤ هجريه فاهتم الخليفة المتوكل بن المعتصم بتلك العصابة غاية الاهتمام وألزم أكبر قواده المدعو طولون الجركسي بالبحث عنها وضبط رجالها أينما كانوا وحيثما وجدوا

فبذل هذا غاية الجهد وشمر عن ساعد الجد والنشاط وتربص لها آناء

الليل وأطراف النهار مقتفيا آثارها وبعد كل مشقة عثر بها في هذه الدار فحاصرها بالجند وهجم عليها بالفرسان وبعد مدافعة شديدة ومقاومة عظيمة من ابي ورجاله كلت قواهم وانحلت عزائمهم فتمكن من ضبطهم والقبض عليهم

وهنا اخذت الجنايني العبرة فأن وبكى حتي اغرق وجناته وبلل شواربه بالدموع حيث تذكر موقف القصاص المرعب واعدام أبيه ومن معه بحالة شنيعة جدا جزاء ما جنت ايديهم وعبرة للقوم المجرمين

ثم استأنف الحديث قائلا بتأوه وتحسر ـ ثم ساقوهم الى السجن مكبلين بالسلاسل والاغلال وبعد محاكمتهم بقساوة وتعذيبهم الأليم صدرت الاحكام باعدامهم شنقا وانمحت تلك العصابة ولم ينج منها خلاف والدتي وأنا حيث كنت حديث السن لا ابلغ من العمر غير عشرة سنوات تقريبا فصرنا نتسول في البلاد وبعد مدة قصيرة توفت والدتي كمدا من تلك المعيشة الدنيئة وحزنا على الايام الغابرة السعيدة

وفى سنة ٢٣٩ وهب امير المؤمنين المغفور له المتوكل هذه الجهة لسيدى الامير بابكيال فخطط داره هذه المشهورة وشرع في بنائها ولو جودى بتلك الجهة تداخلت مع طائفة المعماريه واشتغلت معها في مشال اتربة ورص احجار وخلافه حتي تم البناء وأتي الامير بابكيال بعائلته واستوطن بها وبوجوده انقلبت تلك الجهة معمورة بعد الخراب والدمار

ثم ولكونى متعرفا بأحد المزارعين توسط في دخولى ضمن أسرة الامير حيث كنت تعلمت فن الزراعة وصار لي المام تام بها ومكثت مشتغلا بشؤن الحديقة متخذا هذه الدار مسكنا لي لانها سلواني الوحيد وأثر

اجدادى العزيز

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

فعجب الامير برقوق والعجوز من تلك الحكاية الغريبة وهذا التاريخ العجيب والتفتت العجوز نحو الامير قائلة ابشر ياسيدى فنجمك دائما فى صعود حيث ان الصدف عرفتنا بهذا الرجل الذي سيكون مساعدنا الوحيد فى اشغالنا وربما يكون أخذ ثار والديه مقرونا بعملنا المسعود ... فلا زالت الايام مسعودة بغرة وجهك و

صبحتك السعادة كل يوم بأرغام على انف الحسود
وزادك ربك المولى جلالا فنجم علاك دوما فى سعود

فابتهج الجنايني من سماعه لفظة (الثار) ورقصت شواربه طربا واستنار وجهه فرحا ولم يتمالك نفسه عن الاستفهام فقال لها سيدتي بالله كيف يكون الاخذ بالثار وقد توفي عدوى طولون نسل الاشرار ؟

فضحكت العجوز باستهزاء وقالت بعد ان غمزت الامير برقوق ان لم يكن من طولون فمن نجله المغبون ...

فانتصب الجنايني ملهوفا وألقى نفسه على أقدام العجوز يقبلها وهو يخاطبها بصوت متقطع من شدة الفرح والسرور قائلا : كيف أنال ذلك ... اهل ابلغ الارب ... واطفي ما بقلبي من اللهب .....

فأجابته العجوز بعد ان جمعت قدميها بعظمة وكبرياء . تمهل ياصاح فسوف تزول هاته الاتراح واصبر والايام بيننا ومن يعش رجبا يرى عجبا

وبعد ان تأملت برهة وجيزة قالت اما تعلم ان السبب فى وجودنا بدارك هو الوقيعة بابن طولون فى فخ المكائد فسألقيه في التهلكات وأريه من

الارتباكات مالا عين نظرته واذن سمعته والحمد لله الذي جمالك من أعدائه لتساعدنا على هلاكه فادع المولى لينجح مقاصدنا وتنال مكافئتنا

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى

فصاح الجنايني قائلا . لا اريد مكافأة ولا اتعابا فكافأني بل ويوم الهنا والصفا عندي هو يوم ارى فيه احمد بن طولون مقطوع الراس خامد الانفاس فأمريني الآن بما تشائينه والزميني بما تريدينه فأرينك من افعالي العجب لانه مهما تغيرت الازمنة وتقلبت الاحوال فاني ما زلت من نسل سفاكي الدماء لصا وابن لص

كل امرىء راجع يوما لشيمته وان تخلق اخلاقا الى حين

فتبسم الامير برقوق من هذه المحاورة ونظر الي العجوز قائلا . الوقت ازف يأماه فهيا عجلي بما ترينه مفيدا ومزيلا لماأنا فيه من البلبال واشغال البال . فان الشجون لهافي فوادي أدوار وفنون

— اني لا أريد الآن شيئا ما وغدا سيكون الابتداء في العمل فهيا بنا الآن وقامت وأخذت بيد الامير وسارا قاصدين دار الامير بابكيال وفي اثناء الطريق سألها الامير عنما جرى لمشوقته وحدث من امرها فأجابته ان تأثير السحر ومفعوله لا يظهر الا بعد جملة ايام وبعدها تنظر ما يسر خاطرك ويرتاح له فؤادك حيث ترى محبوبتك انقلبت من دور النفور والبعاد الى دور التقرب والوداد ويسكن حبك في قلبها ويتمكن غرامك من فؤادها فلا تريد من الرجال سواك ولا تشتاق الالرؤياك بل ويصدق من قال

ظل من فرط حبه مملوكا ولقد كان قبل ذلك مليكا

انما غرضي الوحيد ايها الامير هو ان. ننصب لابن طولون شرك المكائد حتى نوقعه لانه قد ظهر لي من علم الجفر ان السيدة جول تحبه حبا لامزيد عليه واظن ان هذا هو السبب لرفض والدها زواجك.

فما سمع ذلك الامير برقوق حتى اصطكت اسنانه واصفر لونه وغارت عيناه وانقلبت سحنته وغاب رشده وصار يتلفظ بحروف متقطعة اغلبها حرف (ط) وذلك من شدة الغيظ الذى فاجأه بسبب الفواعل العشقية التى هيجتها العجوز الساحرة الماكرة ومن غلظ قلب الملعونة ماحصل لها أدني تأثير من هذا المنظر المزعج بل أمرت الجنايني بسكينة وثبات ان يتدارك سيده ويحفظه من السقوط

فاحتضنه هذا بقلب يخفق وجلا وفرائص ترتعد جزعا ولولاذلك لسقط الامير على الارض من شدة غشيانه وعظم اندهاله وكانت العجوز قد أخرجت من جيبها زجاجة صغيرة وأفرغت منها بضع قطرات على منديل وطرحته على وجه الامير فانتفض كالطير المبلول وأفاق من دهشته صائحا...ابن طولون...ابن طولون .... سأقتله......سأذبحه... آه ... أين هو....أواه تحبه...السيده جول تعشقه تالله ماأخطأ أبو فراس الحمداني حين قال

فأيقنت ان لاعز بعدي لعاشق   وان يدى مما علقت به صفر

فتندمت العجوز لفاتحته الحديث واطلاعه على هذا الخبر خصوصا وقد كانوا فى نقطة مطروقة ولكنها تفكرت قليلا فما وجدت طريقه للتخلص من الورطة المخيفة الاالرجوع الي دار الجنايني وهناك يمكنها ان تزيل هو اجس الامير وتصرف عنه هذا الاندهال الذى أحدثته

والدهشة التي احتيها بما وسوست به في صدوره

فأشارت على الجنابي بالرجوع وأوصته ان يسند الامير ويساعده على المسير وبهذه الصورة ارتدوا راجعين حتى وصلوا بالقرب من الداروأجلسوا الأمير على صخرة صغيرة أشبه بقعد

وبعد ان خيم السكون برهة غير يسيرة كان فيها الامير مطرق الرأس منزعج الحواس يحاول ان يجمع أفكاره الشاردة فلا يتسنى له ذلك من شدة مااعتراه

ولما رأت العجوز ان الليل قد دهمهم والأمير على حاله هزته بعنف وطفقت تحدثه بحدة قائلة ما هذا الانذهال وما هاته الدهشة لقد كدت أيها الامير ان تلبسنا ثوب الافتضاح ... أبمثل هذه الرعونة ترجو ان تبلغ الارب ... كلا ثم كلا ..... وما عليَّ الان أتركك وشأنك لئلا يافمالك هذه تكون السبب في ضياعي

فتنبه الامير واستلفتته الفاظها المريعة ورفع رأسه بعد ان ازاح عن عينيه الغياهب المظلمة وأجابها بصوت لا يخرج خالصاً الارتباط لسانه عفوا ياأماه فان ما حصل كان رغما عن الانف وعدى ما صدر هفوة لا تعود

قال ذلك وقام يقبل رأس العجوز ليسترضيها ويزيل ما عندها من الغضب ولكنها نزعت نفسها منه بقوة وما فعلت ذلك الا لتشجعه

فجثى الامير ثانيا على ركبته وأخذ يستعطف خاطرها وغير موضوع الحديث قائلا : بالله اخبريني أيتها السيدة كيف كان تعلق

السيدة جول بابن طولون وكيف تجاسر هذا الغبي على ارتباط المحبة بها... أهل يؤمل أن ينال منها أمرا يكون عقبة فى سبيل وصولي اليها ودون ذلك خرط القتاد

— لا تستخف بالرجال أيها الامير

فالليالي من الزمان حبالي مثقلات يلدن كل عجيبه

أما تعلم ان الانسان ماخلق الا على طمع ولولا الامل ما عاش أحد قط على وجه البسيطه

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الامل

— ياللعجب كيف يعلق نفسه هذا الغبي بخيوط من العنكبوت ويا هل ترى ما السبب فى تلك العلاقة مع كونه أحط من أبيها بدرجات

— حقيقة انك جاهل أيها الامير أما تعلم للآن ان الامير ياركورج عم ابن طولون

— حينئذ يمكنه الاقتران بها.....)

نعم يمكنه وأظن فكر الامير ياركورج موجه لذلك وفقط منتظر ترقيته

— الآن ثبتت عندي جميع أقوالك ومارد في الامير ياركورج الا لهذا الغرض السيء المنتج لشقائي والسبب لاتلافي .....

فاذا كان الامر كذلك فلماذا هذا العناء وتجشم تلك الاعمال المتعبة الاوفق قتل ابن طولون لتموت السيدة جول كمدا وحسرة ولكي بعدها أندب سوء حظى وأتفرغ لمستقبلي التعيس قال ذلك والبكاء يكاد يخنقه والغيرة تكادان تمزق أحشاءه وأمعاءه

فلمحت العجوز منه بريق الحسد والغيرة وقالت لكي تقف

مصابه وتسكن آلامه : ولعدم حصول ذلك بل ولكي تنال المراد بأمان واطمئنان آليت على نفسي ان أساعدك بأسحاري وأدبرك بأفكاري ولكن باللاسف رأيتك عجولا ووجدتك غير صبور

اذا عزمت على حاجة   فشاور كبيرا ولا تعصه

الامر أمرك ياأماه فافعلي ماتريدينه لانك طالما كافحت الدهر في زمانك واختبرت الايام بأفكارك

اذاً تجلد واتخذ الصبر درعا لك يقيك مما تخشاه حتى تري من افعالي مالا يتصوره العقل

كيف اصبر بعد هذا وهل أقدر ان أتمالك نفسي لو وقع نظري على شخص احمد بن طولون ؟

نعم يمكنك لو كنت رجلا حليما صبورا أما سمعت القائل

انا صبرنا فنلنا جل بغيتنا   والدهر بالطبع مغلوب لمن صبرا

حقيقة بالصبر يبلغ الانسان ما يريد اذاً هيابنا الى الدار فلقد امسي الوقت وكوني على ثقة اني ألقيت زمامي بين يديك فافعلي ما ترغبينه ودبري ما تشتهين . قال ذلك وقاما قاصدين دار الامير بابكيال .

ليس للانسان الا   ما قضى الله وقدر

ليس للمخلوق تدبـ   ـير بل الله المدبر

***

﴿ الفصل الرابع ﴾

ــ رب غم يدب تحت سرور ــ

واني رأيت الدهر منذ صحبته   محاسنه مقرونة ومعائبه

اذا سرني في اول الامر لم أزل   على حذر من ان تذم عواقبه

رب معترض اولائم يعترض على فتاة روايتنا السيدة (جول) لتعلقها بحب احمد بن طولون او يلومها لكونها فتاة شرقية جالت في ميدان العشق وتوغلت في أودية الغرام وانقادت لوازع التوق وسجدت أمام هيكل الحب وانتظمت في سلك أسرى الوجد وانصاعت لاحكام الشوق وتوسدت وسائد الاستئثار لمن تحب على الاهل والدار . ولم يعلم اللائم اللاحي ان سلطان الحب اقوى واغلب من كل سلطان خشن الطباع تقوى وتغلب، أو أنها لم تحرز فضيلة التحرى علي من احبت ولسطوات محبته خضعت ورضخت فنجيبه بأن لا لوم عليهاولا تثريب فانها فتاة شبت على منهج الاستقامة والكمال وتربت في حجور العفاف والجلال ولكن شأن كفاح الزمن مقاومة الجمال للجمال بسهام الالحاظ وفتكات الدلال فكان ذلك منهااضطرارا لااختيارا واظهارا لفضل محبوبها واكبارا . سيما وأنها مع ما أعطاها خالقها من الحسن والجمال فريدة عصرها وآية من آيات زمانها كأن قد قال فيها بعض واصفيها

واحسن منك لم ترقط عيني   واجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

وفي الحقيقة كانت كتمثال من الجوهر مزين بحلى الكمال والدلال ممشوقة القامة لينة المعاطف محمرة الخدين مكحلة العينين ذات مبسم لطيف وقد رشيق والحاظ لو ابصرت انسانا تقول له كن مغرما فيكون

تبدت كبدر التم في ليلة السعد   منعمة الاطراف ممشوقة القد
لهامقلة تسبي العقول بسحرها   وثغر حكي الياقوت في حمرة الورد
تحدر فوق الردف اسود شعرها   فاياك اياك الحباب من الجعد

لقد رقت الاعطاف منها وقلبها ... على صبها اقسى من الحجر الصلد

وترسل سهم اللحظ من قوس حاجب ... يصيب ولم يخطى ولو كان من بعد

فيا حسنها قد فاق كل ملاحة ... وليس لها بين البرية من ند

وفضلا عن تلك الطلعة البهية وهذه الصورة الحسنة النقية قد تهذبت بالمعارف وتعلمت من العلوم ما زادها أدبا ولطفا وعقلا وظرفا

نعم وان كانت وهبت قلبها لابن طولون ورهنت فؤادها في محبته ولكن كان حبها نقيا طاهرا ساقته المقادير اليها فقبلته بجاذب طبيعي لاقرار منه ولا مناص عن طاعته

ليس خطب الهوى بخطب يسير ... لا ينبئك عنه مثل خبير

ليس امر الهوى يدبر بالرأى ... ولا بالقياس والتفكير

انما الامر في الهوى خطوات ... محدثات الامور بعد الامور

حيث تربى معها بن طولون من الصغر وتعلقا ببعضهما شغفا فلما زاد سنهما وتقوت الاعصاب ونمي الجسم كان العشق ملازمهما في النمو والحب بينهما في ازدياد حتي تمكن منهما الوداد وتألفت قلوبهما على الغرام

فاذا تألفت القلوب على الهوي ... فالناس تضرب في حديد بارد

واذا صفا لك من زمانك واحد ... فهو المراد فعش بذاك الواحد

وكانا ينتهزان الفرص ويغافلان الرقباء فيتقابلان خفية ويتشاكيان من الم الجوي وطول البعاد متضرعين الي المولي عزوجل في تعجيل اقترانهما ولم شملهما حتي كانت الليلة تمضي بينهما بكل عفة وطهارة

لله وقفة عاشقين تلاقيا ... من بعد طول نوي وبعد مزار

يتعاطيان من الغرام مدامة ... زادتهما بعدا من الاوزار

صدقا الغرام فلم يمل طرف الى   فحش ولا كف لحل ازار
فتلاقيا وتفرقا وكلاهما   لم يخش مطمن عائب اوزاري

ولكن غدرهم الزمان ودار بهما دولاب الدهر حيث تسلطت عليهما اناس لا ترحم وقلوب لا تشفق فتشتت جمعهما وتمزق شملهما

حيث رحل ابن طولون الى قلعة علاء الدين التي تبعد عن المدينة بمسافة طويلة واصاب السيدة جول سحر تلك العجوز الذى خبل عقلها واحزن أحبابها وجعلها عبرة بين اترابها بل جعلها اصبحت بعد ذاك الجمال ورشاقة القد وحسن الاعتدال فى حالة يرثى لها وتبدل احمرار وجنتيها باصفرار وبهاء جبينها بذبول يحزن القلوب ويفتت الاكباد

فالله ضر القوم الغادرين والاشرار الخائنين وذلك ان السيدة جول حينما كانت تستعد لمقابلة محبوبها ابن طولون بانشراح وتجهزت لملاقاته بكل سرور وقد ارسلت تلك الرقعة المار ذكرها فى اوائل الفصل الثاني لينظرها حسب العادة فتطفىء ما بقلبها من لهب الغرام واذا بيد لكمتها بغتة والقتها على الارض فاقدة الحواس خائرة العزائم ثم انتشلتها بقوة فوق العادة فارتبط لسانها وتبلبل عقلها وضاع رشدها وظلت تشخص حركات جنونية وتصيح بصرخات متوالية مزعجة حتى اقلقت من بالدار وحضر والدها فأسكنها بعد كل جهد والقاها على فراش آلامها حتي استغرقت فى النعاس كما أسلفنا

ولما اصبح الصباح واضاء بنوره الوضاح قامت السيدة جول من نومها مذعورة فوجدت نفسها على سريرها بدون انتظام وثيابها ممزقة وشعرها محلول والتفتت بلحاظها اللطيفة نحو المقعد فنظرت والديها

جالسين بسكون وعلى وجهيهما دلائل الحزن وامارات الكآبة

فاحدقت عيناها وتفرست فى طلعتها المبكية وشعرت من حالتها ان هذه الليلة مامضت الا بكل صعوبة وتذكرت ما فاجأها من سيطرة وهم أكسبها نصبا بخبل أضاع رشدها وتصورت ما كانت فيه من التخيلات فكاد الدمع ان ينفجر من مقلتيها دما وبكت بأنين ممزوج بزفرات تتصاعد حسرة على ما اعتراها وحزنا على حالتها التعيسه

فلما أحست والدتها بحركتها الخفيفة وسمعت أنينها المتقطع من البكاء هبت من دهشتها وألقت بنفسها على صدر ابنتها وفلذة كبدها وصارت تقبلها بلهفة عجيبة وتضمها بحنانة غريبة ودموعها مندفقة كالسيل على وجنات ابنتها المغمورة أيضا بالدموع وحينئذ امتزج الدمعان وعلا الضجيجان

هنا يقف القلم متحيرا ويعجز اليراع عن وصف ذلك المنظر المبكى بل المفتت للاكباد والمؤلم للقلوب وقد قام الامير ياركوردج والحزن يكاد ان يفترسه وتداخل بينهما وفرقهما عن بعض واجلسهما بعد ان اسكتهما عن البكاء والعويل واخذ يسأل ابنته عن صحتها مستفهما عن كيفية هذا المصاب العظيم

فأجابته والغم ملأ عينيها انها لا تعى كيف كانت حالتها وغاية ما هنالك استشعرت مبدئيا بأياد لعبت بها كالكرة ولمحت اشخاصا بوجوه مغبرة بالسواد وعيون مقلوبة يسطع منها شرر ودخان .. وأخيرا غبت عن الوجود جزعا وخوفا ... قالت ذلك وغطت وجهها بيديها لملافاة

هذه الحالة الهائلة التي كانت لا تزال تذعرها

فأطرق الامير يا.كورج رأسه غائصا في بحار التأملات ثم رفعها قائلا لحرمه أظن ان هذا العارض من الجان قريب الزوال فاطمئنى وطيبي خاطر بنتيك حتي أجمع الاطباء وأستحضر العلماء فينظروا حالتها ويفتوني في أمرها

ولابد من شكوى الى ذي مروءة   يواسيك أو يسليك أو يتوجع

قال ذلك وخرج من الغرفة قاصدا قاعة استقبال الرجال ولما وصلها جلس امام مكتبته وحرر عدة تذاكر لبعض أطباء وجمله علماء وظل ينتظرهم معفراً بشبكه والغيظ ملأ عينيه

وبعد برهة من الزمن وفدت عليه الاطبأ والعلمأ حتي استكمل عددهم وانتظم مجلسهم ففاتحهم الامير بالحديث واخذ يقص عليهم حادثة ابنته المشؤمة

فبهت الجمع متعجبا وأخذوا يتبادلون اللحظات بحيرة واستغراب ولما لحهم الامير على تلك الحيرة شعر بوطأة شديدة كادت تذهب بعقله يأسا وقنوطا

ورفع هامته ليتكلم واذا بشيخ جليل القدر من العلماء انتصب على قدميه تحفه المهابة والوقار وقال بعد ان حمد المولي سبحانه وتعالي واثني على نبيه عليه افضل الصلاة وازكى السلام

اعلموا ايها الاخوان والسادة الكرام وفقني واياكم رب الارباب الي طريق الخير والصواب ان مااعترى هذه السيدة هو تأثير اسحار وتخيلات من الجان رمتها بهاايادي الاشرار لغرض من الاغراض ثم حول نظره

لبعض الاطباء قائلا . واسأل حضراتكم تستغربون لهذا الحادث وربما لاتصدقون لعدم ورود شيء من هذا القبيل في فنكم فأظهره لكم لان لتروه بالعيان وتتحققون من وجود جان

وبعد مافاه بما تقدم استأذن الامير باركورج ليعرض عليهم المريضة حتى يتسنى لكل منهم ان يبدى رأيه ويبث افكاره فلبي طلبه الامير وقام ووراءه الجميع قاصدين مقاصير الحرم

ولما وصلوا المقصورة وجلسوا في صالة من داخلها حجرة السيدة جول استدعاها احد الاطباء وكان اكبرهم سنا واغزرهم علما

فوقفت السيدة جول بالقرب من باب حجرتها بفرائص ترتعد خجلا ملتفة برداء من الحرير الابيض يظهر من رسمه تقاطيع وجهها الحلي بالاصفرار فقال لها الطبيب

اكشفي لنا أيتها السيدة عن كنه علتك واخبرينا عن مرضك بدون ان يمنعك الخجل عن كتمان شيء

فاجابته السيدة جول بصوت مرتعش عن كيفية غشيانها وعن التخيلات الهائلة المزعجة

فتفرس الطيب مليا في طلعتها وتمعن سحنتها بدقة وبعدها امرها بالاحتجاب ثم التفت الي رفقائه وقال ان كلام الاستاذ لا ريب فيه لان ملامحها وجسمها لا يقبلان داء الصرع ولا التشنجات العصبية فانترك امر معالجتها وازالة تلك الحالة عنها لحضرة الاستاذ لان مارآه هو عين الحقيقة

قال ذلك وقام برفقائه بعد ان ودعوا الاستاذ والامير باركورج ولما خلى المكان التفت الاستاذ نحو الامير قائلا . لايتسني لي معرفة

حالتها تماما الا اذا اعترتها النوبة

— لقد نطقت بالصواب أيها العالم فاصغ برهة وجيزة

— هل النوبة تفاجؤها بميعاد

— نعم بميعاد ولكنه يختلف أحياناً

— اذاً ألتسمح لي ان اكون بالقرب منها لألاحظ كيفية الصرع

— لك ذلك أيها المبجل

قال ذلك وتركه قاصدا ديوان الرجال لاستقبال اصدقائه الذين حضروا التعزيته فيما فوجئ به ويشاركوه فى مصابه ويوازروه فى هذه الشدة التي غيبت رشده

ولما انفرد الاستاذ بنفسه فتح محفظة وابرز منها كتابا صغير الحجم واخذ يقلب في صفحاته متطلعا لما يخص الموضوع وفيما هو غارق فى بحار البحث والتنقيب فما يشعر الا بصرخة ابنتها ضجيج ووقع اقدام مع نحيب وانين يفتت الصخر ويذيب الجماد

فحسبل الاستاذ وحوقل وعلم ان النوبه اعترت السيدة جول وفيما هو يستعيذ من الشيطان الرجيم ويتلو اسم الله العظيم واذا بأحد الخصيان تقرب منه قائلا . اجرنا ايها الاستاذ فلقد دهمنا المصاب

فأجابه الاستاذ ادركني ايها الغلام بطاس من نحاس او كاس من زجاج قال ذلك وولج بسرعة داخل غرفة المريضة فتأثر من منظرها البشع ورثى لهيئتها الشنيعة وتقدم بضع خطوات من سريرها التي كانت مطروحة عليه بغير انتظام وكان الخادم احضر الكأس مملوءة بالماء حسب طلبه فتناولها الشيخ واخذ يتلو على ما بها من الماء حتي

صيره يفور من شدة الغليان وبعدها صب جزء منه على وجهها والباقي على اطرافها فهبت السيدة مذعورة وأخذت تهذي كمن هب منتشلا من حفرة نار أو بئر عميق

وبعد بضع ثوان قامت منتصبة وأفاقت تماما ونظرت لحالتها بكآبة وأطلقت لعينيها عنان البكاء والقت نفسها على مقعد وتذكرت ماضيها ورفاهة الايام الغابرة التي امضتها بصفاء وهناء وراحة بال فناجت ربها بقلب خالص وجسم طاهر قائله

رفقا بي يا الهي ... فلقد كفى ما حل بي من الاهوال .... بلا ذنب جنيتـه .... او عيب أتيته ....فارحمني يارحمن ... واغثني برحمتك يامولاى ... انك القادر المالك ... تقول للشيء كن فيكون باذنك ياحي ياقيوم

اذا ابتليت فثق بالله وارض به ان الذى يكشف البلوى هو الله

ولما بصر الاستاذ حالتها وسمع شكواها وتألمها قال لها مهلا ايتها المصونة وصبرا على غوائل الزمان وبوائق الايام فسوف تنقشع تلك الهموم وتزول تلك الاهوال وما من عسر الا أردف بيسر وما من كربة الا واعقبها فرج

لا تجزعن ان مضت للخطب ايام فربما ساعدت للسعد اعوام
وان تعرض عسر فانتظر فرجا صروف الليالى هما بؤس وانعام

فتنهدت السيدة جولمن قلب مجروح وفؤاد مكلوم وشكرته بصوت متقطع من البكاء وقالت ارجوك ايها الاستاذ الفاضل ان لا تفتر عن ملاحظتي ولا تتركني طرفة عين فلعل وعسى ان تكون ازالة مابي من الآلام

على يديك ايها الهمام

هذا جل ما اتمناه فكوني مطمئنة الخاطر مرتاحة الضمير وها انا قاصد اباك لابشره بسرعة زوال العارض ونجاح عملنا الابتدائي وثقي اني رهين الاشارة عند اللزوم

قال ذلك وخرج من الغرفة وامامه احمد الخصيان الي ان وصل قاعة الرجال فلمح الامير ياركورج منكس الرأس كاسف البال غائصا في بحار التأملات تتلاطمه لجج الافكار

وبدخول الاستاذ استيقظ من سباته وقد قام الحاضرون تعظيما لهيبته حتى جلس بجانب الامير وهمس في أذنه قائلا.. ابشر ايها الامير فلقد اعترتها النوبة ولكن ما مضت بضعة دقائق حتى انصرفت عنها اعراضها وبذلك اتوسم فلاح العمل ونجاح الارب من شفاء السيدة السريع ان شاء الله

— وهل تعاودها بعد ايها الاستاذ ؟

نعم لاني لا اضمن تمام الشفاء الا بعد عشرة أيام على الاقل وانما عليك ان ترتدي برداء الصبر وتزيح عن فكرك ما هو مؤلم بماستبقائه لصحتك وتشجيعا لاسرتك الكريمة

— والآن ماذا تريد ان تفعل ايها الفاضل

— سأذهب الي داري لأستحضر بعض كتب لازمة لعملنا

— اذا كان كذلك فالرجا سرعة العودة

— ان شاء الله.. قال ذلك وخرج يتأبط محفظته ويتوكأ علي عصاه وقد قام الامير ياركورج قاصدا قصر الخليفة حيث استدعاه جلالته اليه

وما كان هذا البين مني بخاطري ولكن قضاء الله للمرء غالب

بعد نزول الشيخ من حضرة السيدة جول جال في خاطرها حبيبها الامير احمد ابن طولون وتذكرت موعد المقابلة الذي عاقها عنه مصابها الاليم فاهتزت هياما لرؤيته ورقصت جوارحها شوقا لطلعته ووبخت ضميرها حيث تركته في الانتظار وما انبأته بواقعة الحال فبالرغم عنها تمانيء من الاوصاب وتجرعه من مر الآلام والاحزان صعب ذلك عليها وما هان لديها ان تجرعه كؤس الهجران وتجعله هدفا للظنون والافكار وهمت في الحال قاصدة الي مخدعها الداخلي وجلست امام مكتبها وتناولت قلما وقرطاسا وخطت بانامها الجوهرية الشكل محررة ما معناه

أأحبابنا ان غبت عنكم وكان لي الي غير مغناكم براح ومقام

فما عن رضا كانت مسايعي بديلة بابلي ولكن للضرورة احكام

حبيبي وقرة عيني ومهجة قلبي

يسوؤني أن احيط علمك بأمري وما وصلت اليه يامن انتثر عقد نظامي معه وصاح غراب البين على مجمع شملنا فصدعه . فدكنت اظن ان الايام لا تزال لنا باسمه ورياح المسرات تنادي جمعنا ناسمه فاذا انا مكلفة الايام ضد طباعها ومتشبثة منها بخلاف أوضاعها لتوقع السرور عقب الحبور . واتناول من الآمال كؤس الصفو الدائم والوفاء المتلازم ولم امثل أمام نظر البصيرة قضية الزمن ومصيره . بل لم اذكر أن الشيء يعقبه ضده والانسان يخالف وعده بعامل القضاء وصوارف القدر وفواعل الشقاء المعترضة لبني البشر

ومكلف الايام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

كيف لا وما حان الوقت المحدد لزيارتك وهممت بباعث الشوق لمشاهدتك حتي أصابني ما ألجأني الى التأخير وفاجأني ماعاقني

عن الاسير ودهمت بأعظم مصاب وبليت بعذاب وأي عذاب حيث شعرت بيد الكمتني فغيبتني عن الوجود وصيرتني في حالة يرثي لها بل وعقل مفقود

وبت على حر نار الغضي ... أسامر همي وأفني دموعي

وما أفقت من غيبوبتي وتنبهت من دهشتي الا عند شروق الشمس وتذكرت ماحل بي في الامس ... ولا تسل ياعزيزي عما اعتراني في هذه اللحظة وما احتاط بي من الهم والغم في تلك البرهة خصوصا حينما وقع نظري على وجه والدي المكفهر بالاصفرار وعلى دموع والدتي المتدفقة كالغيث المدرار

فلو أن مابي بالحصا فلق الحصا ... وبالصخرة الصماء لانصدع الصخر

ولو أن مابي بالوحوش لما رعت ... ولا ساغها ماء النمير ولا الزهر

ولو أن مابي بالبحار لما جرى ... بأمواجها بحر اذا زخر بحر

وبعد مناوبة الاحزان والاكدار استحضر لي والدي شيخا جليلا من ذوي الاقدار فنظر في أمري وأحكم الفراسة وساس عذابي بأتم كياسة حتى توسمت خيرا في تطبيبه واستبقاء لما ينتج لقاء المحب لحبيبه وامل وعسى ان يكون على يديه شفائي ويزول عني همي وعنائي حقق الله الاماني والآمال وهذا ماتم فدم سعيدا على كل حال

(ابنة العم جول)

ولما فرغت من كتابته طوته بمنديل من الحرير بعد ان وضعته داخل غلاف محكم الاطراف وخرجت الى الصالون لتبحث عن مربيها المخلص لؤلؤ وبالمصادفة وجدته به فنادته وانزوت به الي جانب من

زوايا المحل وناولته التحرير قائلة له : تعلم ايها الامين الصادق وعدنا للامير ابن طولون بالمقابلة وهذه الحادثة المشؤمة التي دهمتنا فتسبب منها تركه على منصة الانتظار ولثقتي بصداقتك وعلمي بمحبتك المفرطة للامير قد حررت له بواقعة الحال بأمل ان توصلها اليه فيكون على بصيرة تامة ويزول عنه انشغال البال وتزايد البلبال ويعلم من أمري مايوقفه على خالص عذري ولا يذهب عنك ان حال المتحابين تستدعي مطاردة سواد الجفوة بنبال الاخلاص في نوال الحظوة ولا بد وان يكون كلا الحبيبين واقفا على كنه أحوال حبيبه

فأحني الخادم رأسه علامة الرضاء والقبول وقال بخضوع ووقار هذا جل ما كنت أتمناه وخرج من امامها وهو طافح بالسرور يكاد ان يطير فرحاً واشتياقا لرؤية الامير ابن طولون لانه كان رباه منذ المهد مع سيدته وصار يقطع الطريق بخطوات جواده

اذا أرسلت في أمر رسولا ... فافهمه وأرسله حبيبا
ولا تترك وصيته بشيء ... وان هو كان ذا عقل أديبا
فان ضيعت ذاك فلا تلمه ... على ان لم يكن علم الغيوبا

الفصل الخامس

﴿ وفي الماضي لمن بقي اعتبار ﴾

نبه فؤادك فالحياة غرور ... والموت حق والقضا مقدور

انا على سفر بها وترحل ومصيرنا بعد القصور قبور

في منتصف مدينة بغداد يري الناظر قصرا شامخ البناء يكاد يمس السحاب من عظم ارتفاعه وهو فسيح الارجاء منتظم الوضع يحتوي على ثلاث طبقات في كل طبقة بما ينوف عن الخمسين غرفة جميعها مزينة بافخر الاثاثات فضلا عن سقوفها وجدرانها المحلاة بأبهج الدهانات ومنقوشة بالذهب الوهاج وله في وسط كل وجهة من وجهاته الاربع باب عظيم يدهش النظار ويبلبل الافكار لضخامته واتقان هندسته وجودة الواحه المصنوعة من شجر الجوز ومطعمة بخشب الابنس وقد موهت بالفضة البيضاء كل ذلك مرتب على اشكال غريبة ورسومات عجيبة يحار البلغ الكتاب في وصفها

بناء يخاف الدهر منه وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

ويرى الداخل من بابه الواقع بالجهة الشمالية حديقة فيحاء وروضة غناء جمعت من شتات الاشجار والرياحين ما صيرها بهجة للناظرين ونزهة للوافدين وفي كل زاوية من زواياها فسقية من المرمر الشفاف محاطة ببعض التماثيل البديعة من طيور ووحوش غريبة وفي وسط تلك الحديقة كشك حسن الوضع سميك الصنع ثمين المعدات مزخرف الجهات بأبدع ما يكون من النقوش

تميل به الاغصان أنسا وبهجة وتشدو به ورق الطيور فتطرب

زهور وأطيار وماء وخضرة مناظر حسن للنواظر تعجب

وقصارى القول ان هذا القصر كان لا يماثله نظير في ذلك الزمان كيف لا وهو مسكن ملوك بني العباس الذين أقاموا على كرسي

الخلافة الاسلامية (٥٢٥) سنة حكم في أثنائها سبع وثلاثون خليفة أولهم عبد الله الملقب بالسفاح الذي مكن سلطته وقوى شوكته بتدمير دولة الامويين وصير الخلافة للعباسيين

وكان عصر هذه الدولة من أعظم أعصر الشرف والرفعه حيث الاسلام بلغ فيه أرفع الدرجات من حيث الصناعة والتجارة والفتوحات العظيمة التي جعلت الامة المحمدية في بحبوحة من الثروة وأحرزت مكانة سامية وعمرانا عظيما حتي أهابها معاصروها واغتبطها أحباؤها وحسدها أعداؤها ولكن من الاسف لم تلبث شوكة المملكة مدة يسيرة الا وأفل نجم سعودها وأخذت في الانحطاط من عهد عاشر خلفائها المتوكل على الله الذى كانت المملكة من أول خلافته فوضى لا يعرف لها رئيس لان المماليك الذين كان أدخلهم والده المعتصم بالله قد كثروا في مدينة بغداد وقويت سلطتهم وصار بيدهم زمام الحل والعقد مع عدم فطانتهم وذكائهم حتي بلغت الاحكام من سوء النظام الغاية القصوى ولله در القائل

تهدي الامور باهل الرأى ماصلحوا　　وان تولوا فبالاشرار تنقاد

لا يصلح الناس فوضي لا سراة لهم　　ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فكنت تراهم يقتلون ويعزلون ويولون من شاؤا من العمال حسب رغبتهم المعوجة وفكرتهم السخيفة حتى لم يبق للخليفة في مدتهم من السلطان والحكم الا مجرد الخطبة والاسم واستمر الحال على هذا المنوال حتي وقعت المفاسد وعمت الفتن وكثرت المشاكل وازدادت المحن

وقد ضعفت تلك الدولة وقل نفوذها بعد ذلك العز والاقتدار والاجلال

والفخار حتي لم يبق لها من الولايات والاقاليم سوي بغداد واطرافها واستولي عمالها على اكثر اقطارها ومعظم ولاتها شقوا عصا الطاعة واستأثروا بالملك واختصوا بالاحكام بطريق التعدي والعدوان

فالمسمي سيف الدولة تغلب على ولاية حلب وما يتبعها من البلدان والملقب بابن خياطاب تغلب على اليمن وابن ابويه استولي على بلاد فارس والقرامطه تسلطوا على البحرين واحمد بن طولون الذى هو بطل روايتنا استقل بالديار المصرية وتغلب على جزء من الديار الشامية كما سنسرده للقراء تفصيلا وتبينه تبيينا

هذا مع وجود دولتين اخريين تدعيان الحق فى الخلافة وهما الدولة المروانية بالاندلس (١) والدولة الفاطميه بالغرب فكانت هاتان الدولتان

---

(١) التى لعبت بها الايادي الاورباوية وتداخلت فيها الاجانب حاملة لواء التمدن والحريه مظهرة الاصلاح والفلاح .... وبثوا بين أمرائها جرثومة الفتن وزرعوا لهم بذور الفساد حتي اوقعوهم في بعضهم البعض وقامت الحروب بينهم ففنى معظمهم وتشرد باقوهم وبذلك الدهاء العجيب والمكر الغريب تسني لهم الاستيلاء على تلك المملكة البهية وهاتيك الاقطار الجميلة الغنية وبعد ما كانت عربية اسلامية صارت افرنكيه مسيحية ألا وهى مملكة (اسبانيا) الآن

فأجبني بالله عليك ايها القاريء اى فؤاد لايتصدع واى قلب لا يتقطع واى كبد لا تتفتت واى مهجة لا تذوب بل واى عيون لاتذرف عيون الدمع دما كمدا وحزنا وتأسفا وتحسرا على تلك الديار العربية وما نالها من تصرف اعدائها بها بواسطة منافقيها الذين

تنازعاتها فى الامامة الدينيه والامامات المذكورة تنازعها فى السلطة الادارية التي ضاعت وفقدت من الخلفاء حتى فى مدينة بغداد عاصمة ملكهم ومقر كرسيهم

لان المستعصم بالله آخر خلفائها بالعراق كان له وزير رفضى ... يود زوال الملك وضياع الخلافة من بنى العباس فصار يكاتب زعيم التتار المدعو (هلاكوخان) ويحسن له التملك ويطمعه فى ملك مدينة بغداد مسهلا له ابادة هذه الدولة من عالم الوجود

فطمع المذكور بعد ان استوثق بكلام الوزير الملعون وحضر ومعه

يضمرون السوء ويظهرون المسرّة والحبور

ولكن يااللاسف ويا للندم مع علمنا بقصد الاجانب منا وتحققنا من مضار الدخيل ترانا فى صمم وعمى لا نبصر ولا نتبصر ...

أفما آن لنا يابني الاسلام ان تنقشع عنا غشاوة قلوبنا وتنجلى سحابة الانقيادِ الأعمي عن عيوننا حتي نرى فعل الاجانب فينا ونحتاط مما تكنه سرائرهم لنا او ما آن لنا ان نجمع ونتحد ونشد أزر الجامعة ونتقوى علي صد هجمات هذا الدخيل المميتة لاحساساتنا والمبيدة لاستقلالنا بل القاتلة لنفوذنا فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

نطق الزمان فكان ابلغ ناطق	بمواعظ عنها القلوب تترجم
اهدى لنا عبرا بغير عبارة	ان الزمان هو الفصيح الاعجم
ما للقلوب تقلبت عن رشدها	أقست عن الارشاد أم لا تفهم
ما للعيون ترى العجائب حجة	وكأنها عما تشاهد نوم
تبا للألباب نبت أعمالنا	عن علمها فكأنها لانه لم

بوا قوه التتار وبعد حروب خفيفة ومناوشات لا تذكر استولى على مدينة بغداد حيث كان مهد له السبل ذاك الوزير الخائن الغدار

وقتل جميع اهاليها فلم يسلم منهم الا من اختفي ببئر او نحو ذلك وكانت حادثتهم المشؤمة في بغداد من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى على الاسلام وبنيه واسروا الخليفة وقتلوا عائلته امامه بدون شفقة ولا رحمة ولا خوف ثم قتلوه وبعده قتلوا الوزير صاحبهم جزاء لخيانته وعبرة لخلافه وان كان هو المتسبب لهم في هذا الانتصار وكانت قتلته بحالة فظيعة اهتزت من هول منظرها الكائنات

ولما حصل ما حصل في بغداد من الخراب والدمار زالت تلك الدولة من تلك الاصقاع وكان ذلك فى سنة (٦٥٧) هجرية الموافقة لسنة (١٢٥٨) ميلاديه

جري القضاء بأمر لا مرد له والامر فيما قضى الرحمن مقدور
والله ما الذنب الا فى مقدمة وما لما قدم الرحمن تأخير

ثم استقل من بقي من بني العباس الي الديار المصرية واستوطنوها واستقروا بها نحو الثلاثة قرون تحت رعاية دولة المماليك ولكن لم يكن لهم غير الامامة الدينية وما يتعلق بالامور الشرعية حتي تملكت دولة بني عثمان أدام الله ملكها وخلد عزها

ولازالت عناية المولى محدقة بسلطاننا وخليفتنا سلطان البرين وخاقان البحرين امير المؤمنين وحامي حوزة الملة والدين السلطان بن السلطان السلطان (عبد الحميد صاحب النصر والتمكين والعز والسعد المكين

ولازال شروس الجناب منعما باصناف نعما وارفات ظلالها

وليحفظ لنا سيد الوزراء ومقصد الامراء عضده الوحيد وساعده الشديد مليكنا وخديوينا المعزيز العالي افندينا (عباس باشا حلمي الثاني) أدام الله دولته وأيد صولته وأعز كلمه واهلك اعداءه

وعاش في عز وفي بهجة وصفو عيش سعده مقبل

فنسأله سبحانه وتعالي ان يخلد ملكهما وليد وما ماحوظين بعين العنايه الربانيه محفوظين بحصن الرعاية الازليـة ما دام الفرقدان وتوالي الجديدان آمين

(عود)

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ان بر عندك فيما قال أوكذبا

وربما يكون القارىء قد مل خروجنا عن الموضوع بذكر ملخص تاريخ الدولة العباسية فنجيبه بأن مناسبة المقام ولما له في روايتنا من الارتباط اضطرونا لذلك ونرجوه عذرا وصفحا فان العفو من شيم الكرام

ولنعد بحضرته الي دار الخلافة العظمى وقصر امير المؤمنين الثالث عشر من خلفاء تلك الدولة وهو المعتز بن المتوكل علي الله فنري الامير يازكورج أكبر حراس الخليفة وولد غادة روايتنا السيدة جول راكبا جوادا اشهب لا يبلغ التبليغ حصر وصفه ولو اسهب قاصد الباب الشرقي باب الديوان الملوكي ومركز الاعمال والاحكام

ودخل منه بعد ان حيته الجند والفقون الجانبين وسار بين خدم وحشم حتي وصل الباب الداخلي وهناك ترجل عن جواده فاستلمه احد الحراس ثم صعد علي بعض درجات من الرمر الشفاف الناصع في البياض ومنها صار في الصالون الخاص المعموم بالسكون مع وجود ما ينوف عن

المائتين مملوكا به وناهيك بالهيبة وجلالة المركز الخلافي المقدس

واتجه نحو باب حجرة الخليفة الواقف امامها عدد غفير من اكابر القواد وهم شاهرون سيوفهم المتدلية مرتدين ملابسهم الرسمية . وبعد الاستئذان دخل مقبلا الارض بين يدي امير المؤمنين وسلم بسلام الخلافة الاسلاميه

ولما لمحه الخليفة المعتز اشار اليه بالجلوس فجلس بمرتبته وكان المجلس في تلك اللحظة غاصا باكابر القوم واشراف المدينة من وزراء وعلماء وقواد وحكام ومن خلفه خازنه الخصوصي وحاجبه سماء بن صالح الوصيف منتصب بأدب واحترام وبيده طبق من الابريز الخالص ومرصع بالاحجار الكريمة كاللؤلؤ وياقوت وزمرذ والماس وبوسطه محبرة الخليفة المجوهرة وخاتم الخلافة العباسية الاسلاميه

وبالاختصار ان هذه الغرفة وما حوته توقف الانظار وتدهش الابصار حيث كنت ترى الاثاثات الحريرية المزركشة والمقاعد القطيفة المذهبه فضلا عن ملابس الجلوس الرسمية

وبعد جلوس الامير ياركوج برهة يسيرة التفت نحوه الخليفة المعتز وقال بعظمة ووقار . يسوؤني ما حل بابنتك العزيزة ياير كورج

فانتصب في الحال الامير ياركورج مقبلا الارض ثانيا وقال بصوت خافت وهو راكع على ركبتيه : دمت يامولاي معززا منصورا فكل حادث لاابالي به مادمت ملحوظا بعنايتك البهيه راتعاً تحت ظل ساحتك السنيه.... فلقد جعلت عبدك غائصا فى بحار فضائلك غارقا في لجج انعامك بتنازل الحضرة الملوكانية وتعطفاتها الزكية نحو عبد عبيدها الذي كله ألسنة تشكر وجوارح تثني وتحمد

أوليتني نعما فلا أقوم بشكرها وكفيتني كل الامور بأسرها
فلأشكرنك ماحييت وان أمت فلتمدحنك أعظمي في قبرها

وبعد ما أدى الواجب عليه من الدعاء والتشكرات أومأ اليه الخليفة بالجلوس فجلس مسرور الفؤاد فرح القلب لحسن تعطفات أمير المؤمنين ورضائه عليه ولم تمض برهة وجيزة حتى التفت الخليفه نحو كاتب سره قائلا : أين ماأمرتك به يا بن الاسكافي فناوله المذكور قرطاسا من الورق الابيض محررا بسطور من ماء الذهب فأخذه الخليفة والتفت نحو الجميع قائلا بحماس نحمد الله على نعمه ونستعين به على طاعته ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقاً ونتوكل عليه مفوضين الامر اليه وأشهد ان محمدا عبده ورسوله بعثه على فترة من الرسل ودروس من العلم وادبار من الدنيا واقبال من الآخرة بشيرا بالنعيم المقيم ونذيرا بين يدي الامم بالعذاب الاليم فبلغ الرسالة ونصح الامة وجاهد في الله حق جهاده فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام

اعلموا أيها الحضور انما انا ظل الله في ارضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه فقد جعلني الله ملكا ووهبني ملكا وحكمني فيما بين الخلق كي اسوسهم بالحكمة والعدل لا بالجور والظلم

ولذا تروني مهتما برعيتي غاية الاهتمام باذلا كل جهد لراحة الناس والعباد حيث وكلت أناسا لا ثقين يديرون حركاتهم ويحكمون بينهم بالعدل والانصاف وفضلا عن انتخاب هؤلاء الذين بهذا المجلس غالبهم وثقتي بأماناتهم قد نشرت بينهم الجواسيس كي يحيطوني علما بكل حسنة أو سيئة

تصدر منهم لأجازي كلا منهم حسبما عملت يداه

ولا تستغربوا من ذلك فأنتم تعلمون انه بوفاة الامير (مزاحم بن خاقان) نصبت مكانه نجله (أحمد عرفان) واليا على الديار المصريه ولكن خاب ظني فيه حيث بلغني من بعض المخبرين انه سلك سبلا تنارق سياستنا وتحط بكرامة عدالتنا وتغلب قسرا بالجور على ضعفاء أولئك الناس وساد على رعايانا بحيف عنيف وتعسف يكرهه رسول الله ويأباه الشرف هذا مع ادمانه شرب المسكرات واتيانه الموبقات وتهتكه وفتكه بالاعراض المصونه حتي يئست من صلاح حاله وحسن مآله

ولهذا الذنب الكبير والجرم العظيم قد عزلناه عن هذا المنصب الذى لا يستحقه وطردناه عن ديار الموحدين ليقطن بدار اخوانه الفاسقين جزاءله وليعلم ان العدل أساس الملك وان الظلم مرتعه وخيم

وبعد ان سكت برهة وجه كلامه نحو الأمير بابكيال وزيره الاكبر ومستشاره الاعظم قائلا

فجزاء لخدماتك المشكورة ومكافأة على أعمالك المبرورة قد وهبت لك خراج تلك الولاية سنويا ومنحتك تلك الديار فول عليها من قبلك من تشاء من العمال وتفرس أحسنهم وأخلقهم بمنصبها عالك لا تقع في مخالب خؤون...

واستلم هبتنا واقبل عطيتنا لتكون أنموذج صدق وأمانة وتمثال جد ونشاط يقتدى بك العمال والحكام. قال ذلك وناوله أمره السامي المدون فيه ذلك الانعام الملوكي والهبة السلطانيه بعد ان بصمه بختم الخلافة الاسلاميه وكان نقشه (الحمد لله رب كل شيء وخالق كل شيء)

الخلافة الاسلامية (٥٢٥) سنة حكم في أثنائها سبع وثلاثون خليفة أولهم عبد الله الملقب بالسفاح الذي مكن سلطته وقوى شوكته بتدمير دولة الامويين وصير الخلافة للعباسيين

وكان عصر هذه الدولة من أعظم أعصر الشرف والرفعة حيث الاسلام بلغ فيه أرفع الدرجات من حيث الصناعة والتجارة والفتوحات العظيمة التي جعلت الامة المحمدية في بحبوحة من الثروة وأحرزت مكانة سامية وعمرانا عظيما حتي أهابها معاصروها واغتبطها أحباؤها وحسدها أعداؤها ولكن من الاسف لم تلبث شوكة المملكة مدة يسيرة الا وأفل نجم سعودها وأخذت في الانحطاط من عهد عاشر خلفائها المتوكل على الله الذى كانت المملكة من أول خلافته فوضى لا يعرف لها رئيس لان المماليك الذين كان أدخلهم والده المعتصم بالله قد كثروا في مدينة بغداد وقويت سلطتهم وصار بيدهم زمام الحل والعقد مع عدم فطانتهم وذكائهم حتي بلغت الاحكام من سوء النظام الغاية القصوى ولله در القائل

تهدي الامور باهل الرأى ماصلحوا   وان تولوا فبالاشرار تنقاد
لا يصلح الناس فوضي لا سراة لهم   ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فكنت تراهم يقتلون ويعزلون ويولون من شاؤا من العمال حسب رغبتهم المعوجة وفكرتهم السخيفة حتى لم يبق للخليفة في مدتهم من السلطان والحكم الا مجرد الخطبة والاسم واستمر الحال على هذا المنوال حتي وقعت المفاسد وعمت الفتن وكثرت المشاكل وازدادت المحن

وقد ضعفت تلك الدولة وقل نفوذها بعد ذلك العز والاقتدار والاجلال

والفخار حتي لم يبق لها من الولايات والاقاليم سوى بغداد واطرافها واستولي عمالها على اكثر اقطارها ومعظم ولاتها شقوا عصا الطاعةواستأثروا بالملك واختصوا بالاحكام بطريق التعدي والعدوان

فالمسمى سيف الدولة تغلب على ولاية حلب وما يتبعها من البلدان والملقب بابن طباطاب تغلب على اليمن وابن ابويه استولي على بلاد فارس والقرامطه تسلطوا على البحرين واحمد بن طولون الذى هو بطل روايتنا استقل بالديار المصرية وتغلب على جزء من الديار الشامية كما سنسرده للقراء تفصيلا وتبينه تبيينا

هذا مع وجود دولتين اخريين تدعيان الحق فى الخلافة وهما الدولة المروانية بالاندلس (١) والدولة الفاطميه بالغرب فكانت هاتان الدولتان

---

(١) التى لعبت بها الايادي الاوروباوية وتداخلت فيها الاجانب حاملة لواء التمدن والحريه مظهرة الاصلاح والفلاح .... وبثوا بين أمرائها جرثومة الفتن وزرعوا لهم بذور الفساد حتي اوقعوهم في بعضهم البعض وقامت الحروب بينهم ففني معظمهم وتشرد باقوهم وبذلك الدهاء العجيب والمكر الغريب تمنى لهم الاستيلاء على تلك المملكة البهية وهاتيك الاقطار الجميلة الغنية وبعد ما كانت عربية اسلامية صارت افرنكيه مسيحية ألا وهى مملكة (اسبانيا) الآن

فأجبني بالله عليك ايها القاريء اى فؤاد لايتصدع واى قلب لا يتقطع واى كبد لا تتفتت واى مهجة لا تذوب بل واى عيون لاتذرف عوض الدمع دما كمدا وحزنا وتأسفا وتحسرا على تلك الديار العربية وما نالها من تصرف اعدائها بها بواسطة منافقيها الذين

تنازعانها فى الامامة الدينيه والامامات المذكورة تنازعها فى السلطة الادارية التي ضاعت وفقدت من الخلفاء حتى فى مدينة بغداد عاصمة ملكهم ومقر كرسيهم

لان المستعصم بالله آخر خلفائها بالعراق كان له وزير رفضى ... يود زوال الملك وضياع الخلافة من بنى العباس فصار يكاتب زعيم التتار المدعو (هلاكوخان) ويحسن له التملك ويطمعه فى ملك مدينة بغداد مسهلا له ابادة هذه الدولة من عالم الوجود

فطمع المذكور بعد ان استوثق بكلام الوزير الملعون وحضر ومعه

يضمرون السوء ويظهرون المسرة والحبور

ولكن يالاسف ويا للندم مع علمنا بقصد الاجانب منا وتحققنا من مضار الدخيل ترانا فى صمم وعمى لا نبصر ولا نتبصر ...

أفما آن لنا يابني الاسلام ان تنقشع عنا غشاوة قلوبنا وتنجلى سحابة الانقياد الأعمي عن عيوننا حتي نرى فعل الاجانب فينا ونحتاط مما تكنه سرائرهم لنا او ما آن لنا ان نجمع ونتحد ونشد أزر الجامعة ونتقوى علي صد هجمات هذا الدخيل المميتة لاحساساتنا والمبيدة لاستقلالنا بل القاتلة لنفوذنا فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

نطق الزمان فكان ابلغ ناطق ... بمواعظ عنها القلوب تترجم
اهدى لنا عبرا بغير عبارة ... ان الزمان هو الفصيح الاعجم
ما للقلوب تقلبت عن رشدها ... أقست عن الارشاد أم لا تفهم
ما للعيون ترى العجائب جمة ... وكأنها عما تشاهد نوم
تبا للألباب نبت أعمالهن ... عن علمها فكأنها لاتعلم

بنوا قومه التتار وبعد حروب خفيفة ومناوشات لا تذكر استولي على مدينة بغداد حيث كان مهد له السبل ذلك الوزير الخائن الغدار

وقتل جميع اهلها فلم يسلم منهم الا من اختفى ببئر اونحو ذلك وكانت حادثتهم المشؤمة في بغداد من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى على الاسلام وبنيه واسروا الخليفة وقتلوا عائلته امامه بدون شفقة ولا رحمة ولا خوف ثم قتلوه وبعده قتلوا الوزير صاحبهم جزاء لخيانته وعبرة لخلافه وان كان هو المتسبب لهم في هذا الانتصار وكانت قتلته بحالة فظيعة اهتزت من هول منظرها الكائنات

ولما حصل ما حصل في بغداد من الخراب والدمار زالت تلك الدولة من تلك الاصقاع وكان ذلك فى سنة (٦٥٧) هجرية الموافقة لسنة (١٢٥٨) ميلاديه

جري القضاء بأمر لا مرد له ... والامر فيما قضى الرحمن مقدور

والله ما الذنب الا فى مقدمة ... وما لما قدم الرحمن تأخير

ثم استقل من بقي من بني العباس الي الديار المصرية واستوطنوها واستقروا بها نحو الثلاثة قرون تحت رعاية دولة المماليك ولكن لم يكن لهم غير الامامة الدينية وما يتعلق بالامور الشرعية حتي تملكت دولة بني عثمان أدام الله ملكها وخلد عزها

ولازالت عناية المولى محدقة بسلطاننا وخليفتنا سلطان البرين وخاقان البحرين امير المؤمنين وحامى حوزة الملة والدين السلطان بن السلطان السلطان (عبد الحميد صاحب النصر والتمكين والعز والسعد المكين

ولازال محروس الجناب منعما ... بأصناف نعما وارفات ظلالها

وليحفظ لنا سيد الوزراء ومقصد الامراء عضده الوحيد وساعده الشديد مليكنا وخديوينا العزيز العالي افندينا (عباس باشا حلمي الثاني) أدام الله دولته وأيد صولته وأعز كلمه واهلك اعداءه

وعاش في عز وفي بهجة   وصفو عيش سعده مقبل

فنسأله سبحانه وتعالي ان يخلد ملكهما وليد وما ماحوظين بعين العناية الربانية محفوظين بحصن الرعاية الازلية ما دام الفرقدان وتوالي الجديدان آمين

(عود)

تقبل معاذير من يأتيك معتذرا   ان بر عندك فيما قال أو كذبا

وربما يكون القارئ قد مل خروجنا عن الموضوع بذكر ملخص تاريخ الدولة العباسية فنجيبه بأن مناسبة المقام ولما له في روايتنا من الارتباط اضطرنا لذلك ونرجوه عذرا وصفحا فان العفو من شيم الكرام

ولنعد بحضرته الي دار الخلافة العظمى وقصر امير المؤمنين الثالث عشر من خلفاء تلك الدولة وهو المعتز بن المتوكل علي الله فنرى الامير يازكورج أكبر حراس الخليفة وولد غادة روايتنا السيدة جول راكبا جوادا اشهب لا يبلغ البليغ حصر وصفه ولو اسهب قاصد الباب الشرقي باب الديوان الملوكي ومركز الاعمال والاحكام

ودخل منه بعد ان حيته الجند واقفون بالجانبين وسار بين خدم وحشم حتي وصل الباب الداخلي وهناك ترجل عن جواده فاستلمه احد الحراس ثم صعد علي بعض درجات من المرمر الشفاف الناصع في البياض ومنها صار في الصالون الخاص المعموم بالسكون مع وجود ما يزوف عن

المائتين مملوكا به وناهيك بالهيبة وجلالة المركز الخلافي المقدس

واتجه نحو باب حجرة الخليفة الواقف امامها عدد غفير من اكابر القواد وهم شاهرون سيوفهم الممتدة مرتدين ملابسهم الرسمية. وبعد الاستئذان دخل مقبلا الارض بين يدي امير المؤمنين وسلم بسلام الخلافة الاسلاميه

ولما لمحه الخليفة المعتز اشار اليه بالجلوس فجلس بمرتبته وكان المجلس في تلك اللحظة غاصا باكابر القوم واشراف المدينة من وزراء وعلماء وقواد وحكام ومن خلفه خازنه الخصوصي وحاجبه سماء بن صالح الوصيف منتصب بأدب واحترام وبيده طبق من الابريز الخالص ومرصع بالاحجار الكريمة كاللؤلؤ وياقوت وزمرذ والماس وبوسطه محبرة الخليفة المجوهرة وخاتم الخلافة العباسية الاسلاميه

وبالاختصار ان هذه الغرفة وما حوته توقف النظار وتدهش الابصار حيث كنت ترى الاثاثات الحريرية المزركشة والمقاعد القطيفة المذهبه فضلا عن ملابس الجلوس الرسمية

وبعد جلوس الامير ياركوج برهة يسيرة التفت نحوه الخليفة المعتز وقال بعظمة ووقار . يسوؤني ما حل بابنتك العزيزة يا ياركورج

فانتصب في الحال الامير ياركورج مقبلا الارض ثانيا وقال بصوت خافت وهو راكع على ركبتيه : دمت يامولاي معززا منصورا فكل حادث لا ابالي به مادمت ملحوظا بعنايتك البهيه راتعاً تحت ظل ساحتك السنيه.... فلقد جعلت عبدك غائصا في بحار فضائلك غارقا في لجج انعامك بتنازل الحضرة الملوكانية وتعطفاتها الزكية نحو عبد عبيدها الذي كله ألسنة تشكر وجوارح تثني وتحمد

أوليتني نعما فلا أقوم بشكرها ... وكفيتني كل الامور بأسرها
فلأشكرنك ماحييت وان أمت ... فلتمدحنك أعظمي في قبرها

وبعد ما أدى الواجب عليه من الدعاء والتشكرات أومأ اليه الخليفة بالجلوس فجلس مسرور الفؤاد فرح القلب لحسن تعطفات أمير المؤمنين ورضائه عليه

ولم تمض برهة وجيزة حتى التفت الخليفه نحو كاتب سره قائلا : أين ماأمرتك به يا ابن الاسكافي فناوله المذكور قرطاسا من الورق الابيض محررا بسطور من ماء الذهب فأخذه الخليفة والتفت نحو الجميع قائلا بحماس

نحمد الله على نعمه ونستعين به على طاعته ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقاً ونتوكل عليه مفوضين الامر اليه وأشهد ان محمدا عبده ورسوله بعثه على فترة من الرسل ودروس من العلم وادبار من الدنيا واقبال من الآخرة بشيرا بالنعيم المقيم ونذيرا بين يدى الامم بالعذاب الاليم فبلغ الرسالة ونصح الامة وجاهد في الله حق جهاده فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام

اعلموا أيها الحضور انما انا ظل الله في ارضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه فقد جعلني الله ملكا ووهبني ملكا وحكمني فيما بين الخلق كي اسوسهم بالحكمة والعدل لا بالجور والظلم

ولذا تروني مهتما برعيتي غاية الاهتمام باذلا كل جهد لراحة الناس والعباد حيث وكلت أناسا لا ثقين يديرون حركاتهم ويحكمون بينهم بالعدل والانصاف وفضلا عن انتخاب هؤلاء الذين بهذا المجلس غالبهم وثقتي بأماناتهم قد نشرت بينهم الجواسيس كي يحيطوني علما بكل حسنة أوسيئة

تصدر منهم لأجازي كلا منهم حسبما عملت يداه

ولا تستغربوا من ذلك فأنتم تعلمون انه بوفاة الامير (مزاحم بن خاقان) نصبت مكانه نجله (أحمد عرفان) واليا على الديار المصريه ولكن خاب ظني فيه حيث بلغني من بعض المخبرين انه سلك سبلا تفارق سياستنا وتحط بكرامة عدالتنا وتغلب قسرا بالجور على ضعفاء أولئك الناس وساد على رعايانا بحيف عنيف وتعسف يكرهه رسول الله ويأباه الشرف هذا مع ادمانه شرب المسكرات واتيانه الموبقات وتهتكه وفتكه بالاعراض المصونه حتي يئست من صلاح حاله وحسن مآله

ولهذا الذنب الكبير والجرم العظيم قد عزلناه عن هذا المنصب الذى لا يستحقه وطردناه عن ديار الموحدين ليقطن بدار اخوانه الفاسقين جزاءله وليعلم ان العدل أساس الملك وان الظلم مرتعه وخيم

وبعد ان سكت برهة وجه كلامه نحو الأمير بابكيال وزيره الاكبر ومستشاره الاعظم قائلا

فجزاء لخدماتك المشكورة ومكافأة على أعمالك المبرورة قد وهبت لك خراج تلك الولاية سنويا ومنحتك تلك الديار فول عليها من قبلك من تشاء من العمال وتفرس أحسنهم وأخلقهم بمنصبها عسالك لا تقع في مخالب خؤون . . .

واستلم هبتنا واقبل عطيتنا لتكون أنموذج صدق وأمانة وتمثال جد ونشاط يقتدى بك العمال والحكام . قال ذلك وناوله أمره السامي المدون فيه ذلك الانعام الملوكي والهبة السلطانيه بعد ان بصمه بختم الخلافة الاسلاميه وكان نقشه (الحمد لله رب كل شيء وخالق كل شيء)

فتناوله الامير بابكيال بيد الشكر والامتنان وانتصب قائما يمدح الخليفة ويثني عليه بافصح عبارة وابلغ كلام

وفيما هو مهتم بذلك كان حاجب الخليفة وخازنه سماء بن صالح الوصيف يتأجج قلبه بنيران الحسد والغيرة ويذوب جسمه بعوامل الكمد والغيظ وأصرّ في نفسه ان يدبر أمرا فظيعا ويفعل عملا شنيعا يتسبب منه قتل الخليفة ومن يكون له من المقربين كالوزير بابكيال عدوه القديم خصوصا فان هذا الانعام قد حرك ما بقلبه من الشر المكنون ...

وبعد ما أتم الامير باركيال فروض الشكر وسنن الدعاء انفض المجلس بأمر الخليفة وخرجت الجموع بنظام تام وترتيب غريب بعد اداء سلام الخلافة العباسيه وتقديم واجبات التحية الملوكانيه

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وكل ابن انثي لو تطاول عمره ... الي الغاية القصوي فللقبر آيل

﴿ الفصل السادس ﴾

﴿ ان القليل من الحبيب كثير ﴾

لله ايام تقضت لنا ... ما كان احلاها واهناها

مرت فلم يبق لنا بعدها ... شيء سوى ان نتمناها

حينما كان الامير احمد بن طولون راكعا في وسط غرفته متجها بوجهه الي الجهة الشرقية جهة القبلة المحمديه وكعبة الامة الاسلامية وهو آخذ

في التضرع مسترسلا بالدعاء يشكو حاله لخالقه وبارئه راجيا من الله رحمته وحسن اغاثته من كربه وحزنه كما تركناه في أواخر الفصل الثاني وبجانبه احمد ابن الواسطى كاتبه ونديمه وهو منكس الراس كاسف البال يكاد ان يتمزق أسفا وتحسرا على حالة ابن طولون

واذا بباب الغرفة قد دق فانتبه ابن الواسطي من دهشته واسرع نحو الباب وبعد بضعة ثوان رجع مهرولا واشعة السرور تتلألأ من بين مقلتيه وقال بفرح وحدة . ابشر سيدى فلك العز الدائم وما من كربة الا واعقبت بفرج ذلك تقدير العزيز الحكيم

كن عن همومك معرضا ودع الامور الي القضا
فلرب أمر مسخط لك في عواقبه رضا
وابشر بخير عاجل تنسي به ماقد مضى

فاستفز الامير هذا الكلام والتفت نحو ابن الواسطي ولمح بيده مظروفا فاختطفه بلهفة وفضه بدهشة وبعد تلاوة جملة لاحت علي محياه المكفهرة علامات الانشراح وجلس على مقعدة مسرور الفؤاد مرتاح الضمير وقال بصوت البهجة والمسرة

من الذي اتي بهذا ؟

ـ اتي به لؤلؤ خادم السيدة جول

ـ واين هو ؟

ـ خارج الباب ينتظر مقابلتك

ائتني به . قال ذلك وشخص الي المكتوب يكرر تلاوته ويلتذ بمطالعته لانه من مالكة رقه وسالبة رشده ومحبوبته العزيزة

وبعد لحظة دخل عليه ابن الوسطي متأبطا ذراع الفتى لؤلؤ فقام الامير ابن طولون على الاقدام واستقبلهما احسن استقبال وبعد مبادلة التحية والسلام اجلس الفتى لؤلؤ بجانبه واخذ يباسطه ويمازحه حتى اتى ذكر السيدة جول فاستفسر الامير عن حالتها واجابه لؤلؤ قائلا يعجز اللسان ياسيدي عن وصف هذا الحادث المؤلم وتحار العقول وتتفتت المرائر امام هذا المصاب المشؤم ولولا لطف المولى عز وجل لكنا الآن محوطين بذلك الهول العظيم

وكيف علمت بمكاننا هذا ايها الوالد حتى اتعبت نفسك وكلفت خاطرك وبعد ان سكت لحظة قال واني متشكر لافضالك حافظ هذا الجميل في دفتر مروآتكم السابقة حتى تتيح لي الظروف وتساعدني الفرص فأكافؤك ايها العزيز على اعمالك المبرورة وخدماتك المشكورة

ازرع جميلا ولو في غير موضعه ما خاب قط جميل اينما زرعا
ان الجميل وان طال الزمان به فليس يحصده الا الذي زرعا

دمت يا مولاي رافلا في ثوب السعادة ولا أراك الدهر مكروها واني لاأستحق هذا الثناء وما فعلت الا الواجب نحو محبوب مثلك ربيته منذ المهد واني أدعو المولى عز وجل من صميم فؤادي ان يحييني حتى أرى قرانك السعيد برتبة المنة والكمال وعنوان الفخر والاجلال

أما الطريقة التي وصلت بها الى هذا المكان وحظيت برؤية ذاتك الشريفة هو اني لما استلمت الخطاب من سيدتي وقصدت به القلعة وانا بأعظم سرور وأنس وحبور وجدتها عامة بالسكوت ودلائل الحلو ظاهرة على أطرافها فانقبض قلبي واعترتني الاكدار وخطر ببالي هذان البيتان

قلت يوما لدار قوم تناؤا   أين سكانك الكرام لدينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا   ثم ساروا ولست اعلم أينا

ووقفت أتلفت يمينا ويسارا كالمذهول وأخيرا لمحت أحد خفراء الدرك فاستفهمت منه عن الساكنين وأين كان رحيلهم. فأجابني مايفيد ان جنابكم رحلتم بمن معكم من الجند فجر ذاك اليوم قاصدين قلعة علاء الدين للاقامة بها والمحافظة عليها

فازددت همّا على غمي وصممت ان لاأعود خائبا لئلا تزداد آلام سيدتي وعزمت على السفر قاطعا الطريق بالاستفهام حتى وصلت وتيممت بنور طلعتك البهيه وحظيت بمقابلة ذاتك السنيه التى هى غاية المراد من رب العباد

فقال الامير بن طولون بعد ن شكره على تلك الهمة الشريفة. ياهل ترى من من الاشرار تجاسر على هذا الفعل مع السيدة جول حيث رماه بسحره المنكر

— لايخلو الانسان أيها الامير مهما كانت صفته وحيثيته من عدو بل أكثر

— نعم ان الانسان لاينجو من قادح وحاسد ولا يخلو من الاعداء خصوصا فى هذا الزمان الذي كثرت فيه الحساد والمبغضون والنمامة والمنافقون

زمان كل حب فيه خب   وطعم الخل خل لا يذاق

ولكن السيدة جول فتاة قلما ان تخرج من باب دارها فمن اين يكون لها اعداء؟

— اني لمتعجب من ذلك ايضا وقد جال بخاطرى فكر اجهدت النفس فيه لكي اتحقق من مصدر تلك الدسائس ومنبعها .... وقد كدت ان أفوز حيث تجلت لي أشعة المعرفة ولكنها من خلف ستار الظنون •
وبعد ان سكت برهة قال .. وصرت اهتم في ازالة تلك الستار حتي

تنكشف الحقيقة جلية وكل آت قريب

— بالله ياعزيزي لؤلؤ أوضح لي كلامك بصرف النظر عن تلك الرموز المبهمة... فلعل وعسى ان تساعدني المقادير وتسهل علينا معرفة الجاني اللئيم

— ليس هذا أوان التكلم ياسيدى ولنطرحه لفرصة اخري فلربما اكون مخطئا فى افكاري وان بعض الظن اثم. وأرجوك ان تمهلني حتي اتمكن من الاثبات

فدمدم ابن الواسطي بصوت خافت جدا وتبسم باستغراب وكان افرس اهل زمانه من حيث النباهة وسرعة الادراك وقد تبين له من خلال تلك المحادثة ان لؤلؤ ما أخفي الحقيقة الا لامور ذات بال فقال باستهزاء

أظن ايها الامير ان عزيزي لو لؤ ماخاطبنا بالالغاز وجاوبنا بالرموز الا ليزداد تشوقنا ونهتم لمعرفة كنه كلامه...... فاجابه لولؤ بحدة قائلا .. حاشا ان يكون ذلك ياصديقى مع علمي بان هذا الامر يهمكم كما يهمني

— حينئذ ما الفائدة فى كتمان مايخالج افكارك والخبر يكاد ان يبرز من بين شفتيك

فمي يحدث عن سري فاظهرت   سرائر القلب الا من حديث فم

ثم أردف عبارته قائلا لكي يفحم لؤلؤ فينطق بسره: وأظن أيها الامير ان لولؤ ما أخفي عنا الحقيقة الا خوفا من الاشاعة فلنعذره ونتركه .... لانه على مذهب من قال

السر عندي في بيت لا غلق قد ضاع مفتاحه والبيت مختوم

فقاطع لؤلؤ حديثه قائلا بحماس وحدة زائدة . لا تتصور أيها الصديق ان أسيء الظن بكما الى هذا الحد وحاشا ان يخطر على بالي أو يمر على فكري أنكم ممن يفشون الاسرار ويبوحون بالاخبار مع وثوقي بصداقتكم وتحققي من محبتكم

ـ اذا كان الامر كذلك أيها المحب فلا تتركنا أسرى الهواجس ورهيني الوسواس

فأطرق لؤلؤ رأسه برهة ثم رفعها بتضجر وتلفظ بما هو آت

انك ياصديقي أحمد قد جسمت المسألة وجعلت لها ذيلا طويلا ومركزا مهما مع كون الامر بسيطا جداً وأنا ماوددت الكتمان الا لكي أثق بما دار في خلدي ولكن بما ان حديثي قد تسبب منه ولوجكما في طريق الشكوك والظنون فأنا أبوح لكما بما حواه سري وأطرح بينكما أفكاري . . . تحت شرط أنكما لا تتمسكان باقوالي وتضعانها على مقعد الحقيقة بل ارجو كما ان تتركاها الآن على وسادة الظن والتخمين . . . وهو أنه من منذ سنة تقريبا خطب الامير بابكيال لنجله الامير برقوق السيدة جول والمرسيدي الامير ياركورج بسوء اخلاق برقوق وطبائعه الغير الممدوحه وصفاته المذمومة من حيث البلادة والجبن فضلا عن خلوه من المعارف وتجرده عن العلوم التي هي كمال المرأ وخليقته الأدبية رده خائبا بلطف متعللا بصغر سنها وعدم لياقتها للزواج

وبعد ان تردد الامير بابكيال المرة بعد الاخري ألحّ في طلبه حتى وأنه أحال على الامير ياركورج بعضا من اصدقائه الاعزاء قطع حبل أمله حيث أجابه سيدي ياركورج قطعيا بانها خطيبة ابن اخيه الامير احمد ابن طولون . . . (هنا حصلت في المجلس رجة فرح وسرور خصوصا

بطل روايتنا ابن طولون فان اسرته ابرقت واحمر وجهه وصار يتقرب بكرسيه شيئا فشيئا حتي التصق بلولو وجميعه مسامع تصغي لهذا الحديث اللطيف والبشرى الغير المنتظرة) ثم تتبع كلامه لؤلؤ قائلا .. واظن ان الغرام فلك ببرقوق كما شاع وذاع وصار يبحث وينقب حتي عثر على سماسرة السوء محبي النفاق ومشيدى الغرور واستخدمهم بالنقود لكي يوقعوا السيدة جول فى شرك حبه بطريقة السحر والعدوان ... (هنا اقشعر جسم الامير بن طولون وامتلكته هزة الانتقام واصفرت سحنته بعد الاحمرار ودمدم كما يزوم السبع الكاسر) فلاحظ منه ذلك لؤلؤ وعلم ان هذه الجملة اثرت على حواس الامير ابن طولون فقال بسرعة سبق قدمت لكما رجائي بأن لاتحملا حديثي هذا على محمل الحقيقة بل اتخذوه ظنا وتخمينا لاني ربما أكون فيه من المخطئين .. ولكن ياللعجب كلما توغلت فى الموضوع أرى دلائل التصديق تلوح على محيا كما .. وبما ان الامر كذلك فأستسمح حضرتيكما بالانتقال من هذا الباب وموضوع الحدس والتخمين الى حديث آخر حتى تلوح لنا الظروف وتساعد الفرص ونجزم بصحة الخبر ونتحقق من صدق الاشاعة

فالتفت احمد بن الواسطي نحو الامير ابن طولون الذى كان سابحا فى امواج من التصورات وقال ناللهايها الامير اني شعرت بجاذب طبيعي وصوت داخلي يناجيني بان ظن صديقي لؤلؤ هو عين الحقيقة وفكره هو الصواب

فتبسم الامير ابن طولون تبسم الغيظ وقال وهو يحرك رأسه استغرابا • نعم ان قلب المؤمن دليله ولكن على الباغى تدور الدوائر

بغي وللبغى سهام تنتظر   أنفذ فى الاحشاء من وقع الابر

وزارع الشر لا بد ان يجنيه وما علينا الآن الا ان نتبع نصيحة لولو وتكتم هذا الخبر ثم نبحث بخفية ونفتش بدقة حتي نعثر بالفاعل ونهتم في عرقلة مساعيه

فقال لولو نطقت بالصواب ايها الامير وانا أول من يبذل الجهد في هذا الطريق الصعب المرام حتي يساعدنا الزمان ويصفى لنا الدهر

الناس يجزون باعمالهم كل امرىء يحصد ما قد زرع

وبعد ان مضي عليهم برهة غير يسيره وهم في مجادلة ومباحثة استأذن لولو من الامير قائلا . أرجوك أيها السيد ان تسمح لي بالعودة حيث تركت السيدة جول بالانتظار وقد طال عليها المطال

فأجابه ابن طولون بقوله لقد صدقت يالولو وفى الحقيقة لقد طالت المدة ومضى عليك أيام وأظن السيدة جول حسبت لغيابك الف حساب ولكن ارجوك الانتظار لحظة حتى احرر لك ردا الخطاب

قال ذلك وقام متجها نحو مكتبته وقبض على قلم صار يجول به على صفحات قرطاس حتي ملأه بما جادت به عليه قريحته ووافق ذوقه وناسب المقام : وكان الملخص مامعناه

حبيبتى وسعادة مستقبلي ومنتهى آمالي

لا تسألي ياعزيزتى عما تحملته من مشاق الانتظار وماقاسيته من مطاردة الافكار لانك ادرى بما كنت عليه من علة وما كنت فيه من شوق وولهٍ حتى صرت اتقلب على بساط أحرّ من الجمر وأعامل صبرا بل أمرّ من الصبر

صبرت حتي علم الصبر انني صبرت على شيء أمرّ من الصبر

ولما ضاق صدري وعيل صبري وتراكمت عليّ الاحزان والهموم واحتاطت

بي الاكدار والغموم واعترتني الهواجس وتملكتني الوساوس بعثت نحو اعتابك يامنية الروح صديقي في البكاء والنوح لكي يتنسم اخبارك ويفيدني عن سبب تأخيرك وبذهابه قصدت القلعة بفوادٍ مكلوم ووصلتها بقلب مغموم حيث ان الاوامر صدرت الي بالتعجيل من قومندان الجيوش على الرحيل الى قلعة علاء الدين ومفرق النهرين وفيما كنت مشغولاً بترتيب المهمات اذا بصديقي ابن الواسطي من طرفكم آتٍ واخبرني ان سبب التأخير هو انه لانزعاج قد حصل تمكير فصدقته ورحلت بالجند رغماً عن الانف وبضد ما كنت آمله واطلبه وارغبه

لولا الضرورة مافارقتكم ابداً ولا تنقلت من ناس الي ناس

وقصاري الكلام يامن عقلي به استهام لما وصلنا قلعة علاء الدين اعطاني ابن الواسطي الخبر اليقين فظننت وقتها ان الزرقا انطبقت على الغبراء وكاد الحزن ان يفترسني والكدر ان يقتلني وهممت على الحضور لطرفكم واذا بصديقي لوأو ومعه خطابكم الذي بتلاوته هدأ روعي وارتدت لجسمي روحي وبادرت بتحرير هذا الخطاب تاركاً ما ألمّني من العذاب يترجمه لك قلبك ويفسره بالنيابة عن محبك واسأل المولى حصول المأمول من ازالة تلك الغياهب إنه أكرم مسؤول

(اسير الهموم ابن طاولون)

وبعد الفراغ من تسطيره وضعه داخل غلاف وناوله الي او أو قائلاً ٠ هذا ما جاد به اليراع وامكن تحريره وقد أغفلت ما قاسيته من لواعج الاشتياق الممزوجة بعوامل الشجون والهموم لتحقق من كونك ايها الفيورستكون انسان خالي في بثه بين مهجة الفؤاد ومنية الروح حبيبتي وابنة عمي السيدة المصونة ٠ وأملي وطيد في عدم قطع المكاتبات لانها مرهم آلامي والمسكنة لهواجسي وانشغالي ٠ كذا لا يلزمني ان احث همتك الشريفة

على كشف دسائس المفسدين والبحث عن القوم الغادرين لاعتقادي واعترافي بانك الاب الوحيد والعضد السنيد

ساعد صديقك فى امر يحاوله   فالحر للحر معوان على الزمن

— عفوا سيدي لقد مدحتني بما لا استحقه لان ما الزمتني به هو أمر مقدس عندي وثق بأني لا يهمني فى هذا الكون امر من الامور غير ان تحيا عزيزا وتعيش طالعا في سماء السعد ممتطيا صهوة المجد رافلا في ثوب التهاني مستجليا وجوه الاماني . وبعد ان تفوه لؤلؤ بهذا الكلام قام الامير ابن طولون ومن خلفه احمد الواسطي ولؤلؤ وساروا حتي وصلوا خارج القلعة فاذا بالركائب تنتظرهم فامتطوها ورفقتهم نفر من الجند وأخذوا في قطع الطريق مدة ست ساعات الي ان وصلوا (دربا) من دروب الاستراحة فنزلوا فيه وكان الغرض من مرافقة لؤلؤ هو لتشييعه واحتراما لتوديعه وان كان هذا على غير ارادته

وبعد ان استراحوا مسافة قام لؤلؤ بين يدى الجمهور متشكرا افضال الامير ابن طولون ثم اقسم عليه بالرجوع مكتفيا بما لقيه من الحفاوة ورسوم الاحترام

فقبل منه الامير ابن طولون رجاءه رغما عنه لان مراده وغرضه كان توصيل لؤلؤ ومرافقته حتي يصل مدينة بغداد ومع ذلك ما قفل راجعا الا بعد ان اصحب لؤلؤ بنفرين من الجند لحراسته

وبعد رجوع الامير ابن طولون واحمد بن الواسطي سار لؤلؤ يقطع الطريق بسرعة حتي اقترب من المدينة فأمر الجند بالرجوع مع تبليغ سلامه وممنونيته الي قائدهم ابن طولون ثم استمر على المسير الى ان

وصل دار سيدة الامير ياركورج وكانت المدة التى مضت على غيبته هذه خمسة أيام ماعلم بها سيده ياركورج لدواعى انشغاله بمرض ابنته

ولما صعد الي مقصورة السيدة جول ووقع نظرها عليه كاد ان يغمى عليها من شدة الفرح

هجم السرور علىّ حتي انه　　من فرط ماقد سرنى أبكاني

ياعين صار الدمع منك سجية　　تبكين من فرح ومن أحزان

وسألته بدهشة تخالجها عوامل المسرات عن سبب غيبته وعاتبته لتركها تقاسي مضض الانتظار تلك المدة الطويلة فأحاطها لو لؤ بجميع ما حصل وعلمه القارىء بعد ان ناولها خطاب ابن عمها فاختطفته ببهجة وجاءت امام احدي النوافذ تمتع نظرها بتلاوته وتسلى مابها من الهموم بروٌيته . ولنترك تلك الحزينة متقلبة على بسط آلامها وفرش أسقامها تمانى عامل النوي سراً وتصابر عامل أحزانها جهرا ترقب راحة والشقاء محدق مدهم وتتوسم سرورا والبلاء ملم تعتورها الأنات وتنتابها النوبات وتحتاط بها الهنات وتزاحم مخيلتها الهياكل المروّعة وتمثل امام بصيرتها الخيالات المتنوعة كل ذلك وأهلوها غير فرحين بل هم مرضي لمرض وحيدتهم وعلي فراش مصيبتهم متقلبون يقاسون من البلاء أشده ومن العذاب امرّه وحال السيدة جول

جنون وعشق ذا يروح وذا يغدو　　فهذا له حد وهذا له حد

هما استوطنا جسمي وقلبي كليهما　　فلم يبق لى قلب صحيح ولا جلد



الفصل السابع

﴿ وربما صحت الاجسام بالعلل ﴾

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الاردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولنعد بحضرة القاريء الى دار الجنايني التي يلزمنا ان نلقبها بمرسح الاسحار او بمجمع الاشرار لانها ماآوت من منذ تشييدها غير أوباش الناس وأراذل القوم حتي صارت أخيرا محط اعمال تلك الداهية العظمي والمصيبة الكبرى عجوز حكايتنا وساحرة غادتنا التي بدهائها اغرت الامير برقوق على فعل المنكرات وبمكرها حثته على اتيان المحرمات فأفلحت ونجحت وأى نجاح.. حيث رأت من خلائقه الاستعداد التام لقبول الفساد بل ووجدت طبيعته مائلة الى الشر واخلاقه مجردة من الصلاح والفلاح

وربما يسألنا القاريء عن سبب التصاق تلك الاوصاف بالامير برقوق مع انه من عائلة شريفة النسب كريمة الحسب وهي أرقى العائلات جاها وأغزرها مالا فضلا عن كونه نجل اكبر وزير وتربية رجل جليل خطير كان يجدر به ان يحلي بآداب الامراء ولا يسمي بالفساد في العائلات ولا يستخدم مثل عجوز السوء في ايذاء وحيدة اهلها ومهجة حبيبها السيدة جول .؟.

فنجيبه والاسف يملي علي يراعنا والحزن ملأ أفئدتنا : نعم وان كان هذا الامير حائزا لجميع تلك الصفات وهاتيك الدرجات ولكن هكذا

تكون حالة من اهملت تربيتـه . وهكذا تصير اخلاق من عوده اهله علي الترفه والتشبب علي الدلال ... ولا عجب من ذلك ولا استغراب !! حيث سمعنا بل ورأينا في عصرنا هذا المتشح بأوشية العجائب والغرائب على ان ابناء اغلب العائلات الشهيرة ... حينما يبلغون سن الرشد ويلجون دور الرجال ويندرجون في سلك الشبيبة يتهافتون علي الاعمال المنكرة ويتزاحمون علي الافعال المحرمة (تهافت الذباب على المكروهات وتزاحمه على القاذورات) بل ويفتخرون بتلك القبائح والرذائل التي يسمونها في عرفهم بكلمة (موضه) ويلقبونها في اصطلاحهم بلفظة (حريه) او بعبارة اخرى . الاسم تمدن وتفرنج والفعل سفه وغرور ....

اذا المرء ضيع ما امكنه ومال الي التيه واستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوما ويبكي سنه

نعم نرى ذلك . لان الفرد منهم خصوصا من اتعسه الحظ بوفاة والديه لا يكاد ان يفرغ من ايام حداده ويستولى على ما تركاله من الاملاك ويتصرف بما خزناه له من الاموال حتى تهجم عليه ذئاب السوء وتحوم حوله ثعالب النفاق الذين يكونون متربصين لهذا الجاهل البسيط تربص (السنانير الى الفار) وكثيرا ما يكون هؤلاء اللئام من وكلاء الدوائر ذوى الاصل السافل ... اللذين لا يهمهم غير ابتزاز الاموال وبناء القصور ... بعد خراب تلك الديار .. فيجذبون هذا المسكين بأزمة مكرهم ويسحبونه كالبهيم بعقود احتيالهم ويرتعون به في ميدان الضلال ويسبحون معه في بحار المهلكات واخيرا يغوصون بثروته في اعماق الاضمحلال

اذا كنت في نعمة فارعها فان المعاصي تزيل النعم

فيصبح المسكين صفر اليدين خالى الجيبين ولا يجني من ثمرات طيشه هذا وغروره غير اقبح الاخلاق وأرذل الطبائع فيندم ولات

ساعة مندم ويتحسر ويتأسف ويندب ويتأوه .. ولكن هيهات هيهات .. فما مضى قد انقضى وما فات قد مات . ألم يكن سبب انقياد هذا الجاهل لهؤلاء القوم المفسدين والسماسرة المحتالين هو الاهمال فى التربية من الصغر فانه لو كانت تربيته على منهاج الجد مجردة من عوامل الدلع والدلال اللذان يسميها أبواه بالشفقة والحنو لما كان التفت ولاصغى لاقوال اولئك الجسرة المغرين ولله درمن قال

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

أفلم نشاهد بعض شباننا الذين يتربون من الصغر على اجمل الاخلاق واشرف الطبائع ويشبون كما عودهم آباؤهم على منهج الاستقامة يصدون اولائك الفجرة بدروع حكمتهم ويقيمون في وجوههم حصن آدابهم حقيقة

لا يكون العلى مثل الدني ۔ لا ولاذو الذكا مثل الغبي

ولكن يالاسف هم بالنسبة لاولئك الجهلة المغرورين كالواحد للالف بل قل للمليون وحينئذ فلا غرابة فى أن امتطي برقوق مطية بهيميته وعدى بها نحو باب الطيش ملبيا نداء الشبيبة ومطيعا لداعى الولوع المشوب بالغرض السافل فلا عتب علي نتائج الاهمال ولنتخلص من هذا الموضوع العميق الذى لاتسعه المجلدات وندخل دار الاشرار فنرى تلك العجوز الشمطاء والحية الرقطاء جالسة علي مقعد وبجانبها الامير الجاهل برقوق صاغيا لاقوالها مطيعا لاوامرها وهو بين يديها كالآلة الصماء تديره كيفما شاءت وتحركه حسبما اختارت وبالبعد عنهما ببضع خطوات ترى شخصا جالساطويل القامة اسمر اللون تلوح على محياه دلائل المكر وتسطع من مقلتيه اشعة الدهاء والفساد وكان هذا الشخص يدعى (احمد ابن المدبر)

وهو نديم الامير برقوق وسيكون له دور مهم على مرسح روايتنا يمثل فيه الدناءة وخبث الطوية

لا تسأل المرء عن خلائقه   في وجهه شاهد من الخبر

وكان الامير برقوق فى تلك اللحظة لو نظره القارىء لا يكاد يعرفه لانقلاب سحنته وتغير هيئته لانه والعياذ بالله قد سرى داء الحسد فى عروقه وطاف عرق الحقد على جسمه فكساه لونا من الاصفرار ممزوجا بالسواد

ان الحسود الظلوم فى كرب   يخاله من يراه مظلوما

ذا نفس دائم على نفس   يظهر منها ما كان مكتوما

هذا مع انذهال عقله وتبلبل افكاره اللذان مالهما من جريانه فى طريق الغدر والعدوان وفي هذه البرهة كان يخاطب استاذة الغرور ومعلمة الفتن عما هو آت

ألم تدرى يا أماه ماجد من الاخبار وحدث من الامور التى ستكون ولا شك عقبة كبيرة فى طريقنا وسببا ثقيلا فى عرقلة مساعينا

— اعوذ بالله ايها الامير من شر هذا الخبر ... فما هي تلك الامور التي ظهرت تأثيراتها بسرعة على محياك الجميل فدنى لقد كدرت صفو عيشى حيث أراك كاسف البال مرتبك الافكار

— هي والله مصيبة كبرى وطامة عظمى ولقد صدق من قال

ما كل ما يتمني المرء يدركه   تأتي الرياح بما لا تشتهى السفن

ـ لقد ازعجتني وغيرت خاطري وبلبلت فكرى بهذا الحديث المفجع فعجل وفدنى بجلية الخبر .. وما استتر بضميرك تحت سجاف الفزع الاليم اهل اطلع احد على اعمالنا وانكشفت له اسرارنا ؟

ـ لا اعني ذلك بل هي امور حدثت عكس ارادتنا وخطب جلل برهن لنا علي ان احمد بن طولون سعيد الحظ وجميل البخت

ـ بخ بخ ايها الامير .. فمن هو ابن طولون .. لا شك ان الغيرة البستك حلة من الجنون

ـ لا تهزئي ايتها السيدة بما سألقيه عليك واصغي جيدا كي تعذريني ثم قال بعيون باكية وزفرات متصاعده .. اعلمي ان امير المؤمنين قد خلع الامير عرفان ابن مزاحم من منصب ولاية الديار المصرية لعدم استقامته ووهبها لوالدي الوزير بابكيال

ـ حسن حسن هذه بشرى سعيدة ومنة عظيمة

ـ بالله عليك لا تقولي بشرى ومنة بل هي داهية ومصيبه ... لان والدي عزم علي ارسالي الي تلك الاقطار كي ادير ادارتها والاحظ شؤونها

حقيقة انك جاهل بطوالع الامور .. اهل ارتقاؤك لتلك الدرجة واستيلاؤك على هذا المنصب عددته من الدواهي والمصائب !!!

تغرب عن الاوطان في طلب العلا	وسافر ففي الاسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة	وعلم وآداب وصحبة ماجد
فان قيل في الاسفار ذل وغربة	وتشتيت شمل واجتماع شدائد
فموت الفتى خير من حياته	بدار هوان بين واش وحاسد

ـ كلا ما هذا قصدي بل الذي كدرني وحير افكاري ... هو كيف أذهب الي تلك البلاد البعيدة تاركا عدوي الألد وشريكي المستبد ابن طولون يخلو له الجو فيسرح مطمئن الخاطر هادئ البال .. وربما ساعدته المقادير فيقترن بمحبوبة القلب ومنية الفؤاد ...

- اطرح من ذهنك هذه التصورات ولا تخش من هذا الامر سوء حيث دون ذلك خرط القتاد ولو انقلب الكون بالعباد

- كيف ذلك خبريني عما هنا لك .. قال ذلك وارتمى عليها باكيا مستغيثا

- فتأثرت العجوز من منظره المحزن وانهضته قائلة . شجع نفسك وهدىء روعك فكل صعب بتدبيري يهون

- وما هو مقدار التدبير عجلي بالافادة رعاك الله

- ارجوك ان لا تخالف اوامر ابيك الوزير بل اظهر كل فرح وسرور لهذا المنصب الجليل واشتياقك المفرط لذاك السفر السعيد لان سيكون السبب الوحيد فى فائدتك والبرهان الساطع على قرب سعادتك

- فقاطعها الامير برقوق وقال وهو شاخص بنواظره في وجهها : ولماذا ؟

- لكون والدك لايمكن ان يبعثك الا وصحبتك قوة عسكريه لاجل حراستك أولا ولكي تساعدك على نظام الاحوال وتدبير الاعمال ولما يشرع فى ذلك أطلب منه ان يكون قائد تلك الجنود ورئيسها أحمد بن طولون مظهرا له محبته الصادقة مادحا له فى أطواره وصفاته فبالضرورة والدك لايتأخر عن اجابة طلبك خصوصا وان أحمد بن طولون قد اشتهر بالقوة والشجاعة واتصف بالنباهة والفراسة فلما تصلوا سوية الي هاتيك الاقطار وتستلم أنت زمام الاعمال وتجلس على منصة الاحكام تفعل كل طريقة فى استمالة قلوب الاهالي وبالاخص العلماء والقواد وابذل الجهد مع الدرهم والدينار حتي تصير نفسك محبوبا ومحترما

ان الدراهم في الاماكن كلها　　تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة　　وهي السلاح لمن أراد قتالا

وبتلك الوسائط تتمكن من عدوك ابن طولون بل ويمكنك ان توقعه في وهدة الهلاك وتمحو أثره من عالم الوجود وبوفاته يسهل عليك الاقتران بمحبوبتك ومشوقتك السيدة جولي حيث أكون قد مهدت اليك السبل باسحاري وساعدتك بمعارفي واحتيالي ...

ولما فرغت العجوز من كلامها رفع رأسه ذلك الشقي ابن المدبر الذي كان طول تلك المدة غارقا في بحار السكوت والتفت نحو الامير قائلا .. تالله ايها الامير ان هذا التدبير هو عين الصواب فلا احرمنا المولى من ثاقب آرائها ودرر افكارها لانها وايم الحق لآلهة في النباهة والذكاء .. وكان ابن المدبر ما مدح العجوز الا لاجل غاياته الدنيئة لان كلامها وقع عنده موقع الاستحسان وزينت له نفسه الامارة بالسوء حلاوة الغدر والانتقام حيث كان لا يهم هذا الخبيث غير الاضرار بالعباد

فلما سمع الامير برقوق كلام العجوز وانطباق افكار نديمه الكثيفة لافكارها ظهرت على ملامحه علامات السرور وآيات الانشراح وقال وهو يكاد ان يطير فرحا ويصفق طربا .. نعم الرأي رأيك يااماه فلله درك من عاقلة صارعت الدهر فكدتيه ومارست الزمان فعرفتيه وانك لفي الحقيقة آية من الآيات حيث بتدبيرك هذا انتشلتني من بئر الهموم والاحزان فشكرا لك شكرا

سأشكر نعماك التي لو جحدتها　　أقربها حالي ونم بها سري
وفي حسن حال الروض أعدل شاهد　　يقر بما أسدت اليه يد القطر

وبعد ان انخدع المغرور بما سولت له ام الشرور فأمل ضميره المفتون بالحصول على امانيه اذاقة عدوه المنون وانحنى ثملا بخمر الغرور بين يدي تلك الشوهاء فهزت العجوز اعطافها بكبرياء وانتفخ جسمها من هذا المديح والاطراء وقالت نعم نعم هذا هو الحل الوحيد والرأي السديد ثم رفعت صوتها مترنمة بقول الشاعر

واني وان كنت الاخير زمانه   لآت بما لا تستطعه الاوائل

ـ اذا نستسمحك يااماه في القيام لكي ندبر ماأمرتي به ونسعي في نوال المراد .. قال ذلك الامير برقوق وانتصب قائماً للذهاب فاجابته العجوز على مرامه وخرج ومعه احمد بن المدبر قاصدين الامير بابكيال وهما يتشاوران عن كيفية الانتقام ويدبران المكائد ومازالا هكذا في تصورات عقيمه وأفكار سقيمة حتي وصلا الي مركز الوزير الرسمى بالديوان الملوكى

فدخل عليه نجله وقبل يديه ثم جلس بجانبه وبعد برهة قال .. متي يكون السفر ياوالدي ؟

ـ فى أى وقت تريد وتختار

ـ اذا استحسن حضرة الوالد فيكون يوم السبت القادم لأنه يوم مبروك والسفر فيه مسعود

ـ فليكن ذلك يابنيّ

ـ حينئذ فلأستعد واجهز لوازم الرحيل

ـ نعم استعد لانى سأخابر قائد الجيوش كى يجهز لك (أوردى) من الفرسان ليكون في خدمتك ويساعدك على أعمالك

ـ أظن ياحضرة الوالد لو كان الأوردي تحت قيادة عزيزي ابن طولون يكون اتم

ـ وأنا كنت متفكرا ذلك ايضا لان ابن طولون شاب مستقيم مهذب وله مهارة تامة في تدبير الامور فضلا عن شجاعته في اقتحام الاخطار

فتململ الامير برقوق من تلك الاوصاف واغتاظ من هـذا المديح ولكنه اخفى انفعاله وقال بحماسة

ـ وانا قد فضلت مرافقته لهذا السبب وسأصطحب احمد بن المدبر ايضا لانه لا يعزب عن خاطرك الشريف ما هو عليه من المهارة في فن الكتابة ودرايته بعلم الحساب

ـ فلما سمع الامير من نجله هذا الاقتراح سرّ سرورا عظيما خصوصا وقد بدت له من افكار نجله بارقة النجابة التى كان لا يتصورها فيه قبل الآن ولم يدر أن هذه النجابة نتيجة قضايا العشق الفاسد وستجر عليه ويلات المفاسد وبدعم نجيبها بجب البلايا ويخس طالعه ويكفهر جوّ مستقبله بالرزايا ه ولكن هي سلامة الحنان الابوى وباعث الاشفاق الفطرى قادت الوزير أعمى وخيلت له انه لم يكن في الامر معمي ففى الحال نادى بأحد الخدمة وناوله مظروفا بعد ان سطر فيه ما نصه

عزيزى الشهم الهمام والبطل الضرغام

حيث صدرت ارادة امير المؤمنين السنية بجعل الديار المصريه تحت تصرفنا وقد عزمنا على ارسال نجلنا الامير برقوق ليكون واليا على الخراج والاعمال الاداريه فالامل التنبيه على احدى الفرق العسكريه بالاستعداد لتقوم

بالشؤن العسكريه وليكن احمد بن طولون قائدها ومدير حركتها افندم

(بابكيال)

فاخذه الخادم وجد في السير حتى وصل ديوان الجهادية ومركز الاعمال الحربية وهناك سلمه للقائد العام ولما احتاط هذا بما حواه ارسل في الحال احد الفرسان بتذكرة يدعو بها الامير احمد بن طولون بعد أن حرر للوزير يقول

سيدي الامير الجليل ودولة الوزير الخطير

بناً علي امركم السامي قد تنبه حالا علي الاوردى العاشر من الفرسان ليكون على اهبة السفر

وسيكون قائده أحمد بن طولون وحيث ان المذكور قائد من الدرجة الثالثه وبها لا يجوز استلامه قيادة أوردي كما هو معلوم فالامل ترقيته الي الدرجة الثانية اتماما للمرغوب أفندم (أبو الفتح)

ولما وصل هذا الخطاب ليد الوزير أصدر أمره حالا بترقية ابن طولون بعد ان صدق عليه من أمير المؤمنين وصار الامير ابن طولون من ساعتها قائد أوردي بعد ان كان قائد فرقة صغيرة وكانت عدة الاوردى ألفي جندى ورتبة رئيسه تعادل رتبة (أميرآلاي الآن) فسبحان الحنان المنان

واذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ماكان يعرف طيب عرف العود



ــ*﴿ الفصل الثامن ﴾*ــ

﴿ هيهات تكتم في الظلام مشاعل ﴾

ومن رام أمرا والخطوب مطية   فما حيلة الانسان الا ركوبها
ومن سالم الايام في حين عسره   وان لم تهن هانت عليه حروبها

في اليوم العاشر من شهر ذى القعده سنة (٢٥٤) كان القوم مترحلين جميعا على أهبة السفر حيث كنت تري خارج أسوار مدينة بغداد فرسان الاوردى العاشر مصطفة بأبهج ترتيب ونظام عجيب وأمامهم بطل روايتنا الغيور والشهم الجسور الامير أحمد بن طولون وهو ممتط صهوة جواد أدهم بغرة بيضاء كالدرهم وهو يتمايل عليه عجبا بما من الله عليه من الحسن والكمال والادب والجمال

وكم أبصرت من حسن ولكن   عليك من الورى وقع اختياري

غير انه أدرك الحيلة وما دبره أعداؤه له من المكائد ونصبوا من الاشراك والمصائد فكاد ان يتميز غيظا من أعدائه الذين خلقوا له هذا الذهاب ومفارقة الاحباب فسطر أنين مهجته وباعث حرقته على فرقته

تذكرت أيام الوصال بقربكم   فهيج قلبي بالغرام لهيب
فوالله ما فارقتكم بارادتي   ولكن تصريف الزمان غريب
سلام وتسليم وألف تحية   عليكم واني مدنف وكئيب

وكان بجانبه الامير برقوق وهو على ظهر حجرة أصيلة ودرة يتيمة تتيه دلالا بما عليها من الجوهرات وبالقرب منه الغادر أحمد بن المدبر وهو لهلاك أحمد بن طولون يفكر وكان منظرهم في تلك اللحظة من

تكون حالة من اهملت تربيتـه . وهكذا تصير اخلاق من عوده اهله على الترفه والتشبب على الدلال ... ولا عجب من ذلك ولا استغراب !! حيث سمعنا بل ورأينا في عصرنا هذا المتشح بأوشية العجائب والغرائب على ان ابناء اغاب العائلات الشهيرة ... حينما يبلغون من الرشد ويلجون دور الرجال ويندرجون في سلك الشبيبة يتهافتون على الاعمال المنكرة ويتزاحمون على الافعال المحرمة (تهافت الذباب على المكروهات وتزاحمه على "القاذورات) بل ويفتخرون بتلك القبائح والرذائل التي يسمونها في عرفهم بكلمة (موضه) ويلقبونها في اصطلاحهم بلفظة (حريه) او بعبارة اخرى . الاسم تمدن وتفرنج والفعل سفه وغرور ....

اذا المرء ضيع ما امكنه ... ومال الى التيه واستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره ... سيضحك يوما ويبكي سنه

نعم نرى ذلك . لان الفرد منهم خصوصا من اتعسه الحظ بوفاة والديه لا يكاد ان يفرغ من ايام حداده ويستولي على ما تركاله من الاملاك . ويتصرف بما خزناه له من الاموال حتى تهجم عليه ذئاب السوء وتحوم حوله ثعالب النفاق الذين يكونون متربصين لهذا الجاهل البسيط تربص ("السنانير الى الفار) وكثيرا ما يكون هؤلاء اللئام من وكلاء الدوائر ذوي الاصل السافل ... الذين لا يهمهم غير ابتزاز الاموال وبناء القصور ... بعد خراب تلك الديار ... فيجذبون هذا المسكين بأزمة مكرهم ويسحبونه كالبهيم بقود احتيالهم ويرتعون به في ميدان الضلال ويسبحون معه في بحار المهلكات واخيرا يغوصون بثروته في اعماق الاضمحلال

اذا كنت في نعمة فارعها ... فان المعاصي تزيل النعم

فيصبح المسكين صفر اليدين خالي الجيبين ولا يجني من ثمرات طيشه هذا وغروره غير اقبح الاخلاق وأرذل الطبائع فيندم ولات

ساعة مندم ويتحسر ويتأسف وينــدب ويتأوه .. ولكن هيهات هيهات .. فما مضى قد انقضى وما فات قد مات . ألم يكن سبب انقياد هذا الجاهل لهؤلاء القوم المفسدين والسماسرة المحتالين هو الاهمال فى التربية من الصغر فانه لو كانت تربيته على منهاج الجد مجردة من عوامل الدلع والدلال اللذان يسميها أبواه بالشفقة والحنو لما كان التفت ولاصغى لاقوال اولئك الجسرة المغرين ولله درمن قال

وينشأنا شىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

أفلم نشاهد بعض شباننا الذين يتربون من الصغر على اجمل الاخلاق واشرف الطبائع ويشبون كما عودهم آباؤهم على منهج الاستقامة يصدون اولائك الفجرة بدروع حكمتهم ويقيمون في وجوههم حصن آدابهم حقيقة

لا يكون العلى مثل الدنيّ لا ولاذو الذكا مثل الغبي

ولكن باللاسف هم بالنسبة لاولئك الجهلة المغرورين كالواحد للالف بل قل للمليون وحينئذ فلا غرابة فى أن امتطي برقوق مطية بهيميته وعدى بها نحو باب الطيش ملبيا نداء الشبيبة ومطيعا لداعى الولوع المشوب بالغرض السافل فلا عتب علي نتائج الاهمال ولنتخلص من هذا الموضوع العميق الذى لاتسعه المجلدات وندخل دار الاشرار فنرى تلك العجوز الشمطاء والحية الرقطاء جالسة علي مقعد وبجانبها الامير الجاهل برقوق صاغيا لاقوالها مطيعا لاوامرها وهو بين يديها كالآلة الصماء تديره كيفما شاءت وتحركه حسبما اختارت وبالبعد عنهما ببضع خطوات ترى شخصا جالسا طويل القامة اسمر اللون تلوح على محياه دلائل المكر وتسطع من مقلتيه اشعة الدهاء والفساد وكان هذا الشخص يدعى (احمد ابن المدبر)

وهو نديم الامير برقوق وسيكون له دور مهم على مرسح روايتنا يمثل فيه الدناءة وخبث الطوية

لا تسأل المرء عن خلائقه   في وجهه شاهد من الخبر

وكان الامير برقوق فى تلك اللحظة لو نظره القارىء لا يكاد يعرفه لانقلاب سحنته وتغير هيئته لانه والعياذ بالله قد سرى داء الحسد فى عروقه وطاف عرق الحقد على جسمه فكساه لونا من الاصفرار ممزوجا بالسواد

ان الحسود الظلوم فى كرب   يخاله من يراه مظلوما

ذا نفس دائم على نفس   يظهر منها ما كان مكتوما

هذا مع انذهال عقله وتبلبل افكاره اللذان نالهما من جريانه فى طريق الغدر والعدوان وفي هذه البرهة كان يخاطب استاذة الغرور ومعلمة الفتن عما هو آت

ألم تدرى يا أماه ماجد من الاخبار وحدث من الامور التى ستكون ولا شك عقبة كبيرة فى طريقنا وسببا ثقيلا فى عرقلة مساعينا

— اعوذ بالله ايها الامير من شر هذا الخبر ... فما هي تلك الامور التي ظهرت تأثيراتها بسرعة على محياك الجميل فدنى لقد كدرت صفو عيشى حيث أراك كاسف البال مرتبك الافكار

— هي والله مصيبة كبرى وطامة عظمى ولقد صدق من قال

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تأتي الرياح بما لا تشتهى السفن

— لقد ازعجتني وغيرت خاطري وبلبلت فكرى بهذا الحديث المفجع فعجل وفدنى بجلية الخبر .. وما استتر بضميرك تحت سجاف الفزع الاليم اهل اطلع احد على اعمالنا وانكشفت له اسرارنا ؟

ـ لا اعني ذلك بل هي امور حدثت عكس ارادتنا وخطب جلل برهن لنا علي ان احمد بن طولون سعيد الحظ وجميل البخت

ـ بخ بخ ايها الامير .. فمن هو ابن طولون .. لا شك ان الغيرة البستك حلة من الجنون

ـ لا تهزئي ايتها السيدة بما سألقيه عليك واصغي جيدا كي تعذريني ثم قال بعيون باكية وزفرات متصاعده .. اعلمي ان امير المؤمنين قد خلع الامير عرفان ابن مزاحم من منصب ولاية الديار المصرية لعدم استقامته ووهبها لوالدي الوزير بابكيال

ـ حسن حسن هذه بشرى سعيدة ومنة عظيمة

ـ بالله عليك لا تقولي بشرى ومنة بل هي داهية ومصيبه ... لان والدى عزم علي ارسالى الي تلك الاقطار كي ادير ادارتها والاحظ شؤونها

حقيقة انك جاهل بطوالع الامور .. اهل ارتقاؤك لتلك الدرجة واستيلاؤك على هذا المنصب عددته من الدواهى والمصائب!!!

تغرب عن الاوطان فى طلب العلا	وسافر ففى الاسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة	وعلم وآداب وصحبة ماجد
فان قيل فى الاسفار ذل وغربة	وتشتيت شمل واجتماع شدائد
فموت الفتى خير من حياته	بدار هوان بين واش وحاسد

ـ كلاّ ما هذا قصدى بل الذي كدرني وحير افكارى ... هو كيف أذهب الي تلك البلاد البعيدة تاركا عدوى الألد وشريكي المستبد ابن طولون يخلو له الجو فيسرح مطمئن الخاطر هادئ البال .. وربما ساعدته المقادير فيقترن بمحبوبة القلب ومنية الفؤاد ...

ـ اطرح من ذهنك هذه التصورات ولا تخش من هذا الامر سوء حيث دون ذلك خرط القتاد ولو انقلب الكون بالعباد

ـ كيف ذلك خبريني عما هنالك .. قال ذلك وارتمى عليها باكيا مستغيثا

ـ فتأثرت العجوز من منظره المحزن وانهضته قائلة . شجع نفسك وهدىء روعك فكل صعب بتدبيري يهون

ـ وما هو مقدار التدبير عجلي بالافادة رعاك الله

ـ ارجوك ان لا تخالف اوامر ابيك الوزير بل اظهر كل فرح وسرور لهذا المنصب الجليل واشتياقك المفرط لذلك السفر السعيد لان سيكون السبب الوحيد فى فائدتك والبرهان الساطع على قرب سعادتك

ـ فقاطعها الامير برقوق وقال وهو شاخص بنواظره في وجهها : ولماذا ؟

ـ لكون والدك لايمكن ان يبعثك الا وصحبتك قوة عسكريه لاجل حراستك أولا ولكي تساعدك على نظام الاحوال وتدبير الاعمال ولما يشرع فى ذلك أطلب منه ان يكون قائد تلك الجنود ورئيسها أحمد بن طولون مظهرا له محبته الصادقة مادحا له فى أطواره وصفاته فبالضرورة والدك لايتأخر عن اجابة طلبك خصوصا وان أحمد بن طولون قد اشتهر بالقوة والشجاعة واتصف بالنباهة والفراسة فاما تصلوا سوية الي هاتيك الاقطار وتستلم أنت زمام الاعمال وتجلس على منصة الاحكام تعمل كل طريقة فى استمالة قلوب الاهالي وبالاخص العلماء والقواد وابذل الجهد مع الدرهم والدينار حتي تصير نفسك محبوبا ومحترما

ان الدراهم في الاماكن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

وتلك الوسائط تمكن من عدوك ابن طولون بل وتمكنك ان توقعه في وهدة الهلاك وتمحو أثره من عالم الوجود وبوفاته يسهل عليك الاقتران بمحبوبتك ومعشوقتك السيدة جولي حيث أكون قد مهدت الك السبل باسحاري وساعدتك بمعارفي واحتيالي ...

ولما فرغت العجوز من كلامها رفع رأسه ذلك الشقيّ ابن المدبر الذى كان طول تلك المدة غارقا في بحار السكوت والتفت نحو الامير قائلا .. تالله ايها الامير ان هذا التدبير هو عين الصواب فلا احرمنا المولى من ثاقب آرائها ودرر افكارها لانها وأيم الحق لآلهة في النباهة والذكاء .. وكان ابن المدبر ما مدح العجوز الا لاجل غاياته الدنيئة لان كلامها وقع عنده موقع الاستحسان وزينت له نفسه الامارة بالسوء حلاوة الغدر والانتقام حيث كان لا يهم هذا الخبيث غير الاضرار بالعباد

فلما سمع الامير برقوق كلام العجوز وانطباق افكار نديمه الكثيفه لافكارها ظهرت على ملامحه علامات السرور وآيات الانشراح وقال وهو يكاد أن يطير فرحا ويصفق طربا .. نعم الرأى رأيك يا أماه فلله درك من عاقلة صارعت الدهر فكدرته وما رست الزمان فعرفته وانك لفي الحقيقة آية من الآيات حيث بتدبيرك هذا انتشلتني من بئر الهموم والاحزان فشكرا لك شكرا

سأشكر نعماك التي لو جحدتها أقربها حالي ونم بها سري
وفي حسن حال الروض أعدل شاهد يقر بما أسدت اليه يد القطر

وبعد ان انخدع المغرور بما سولت له ام الشرور فامل ضميره المفتون بالحصول على امانيه اذاقة عدوه المنون وانحنى ثملا بخمر الغرور بين يدي تلك الشوهاء فهزت العجوز اعطافها بكبرياء وانتفخ جسمها من هذا المديح والاطراء وقالت نعم نعم هذا هو الحل الوحيد والرأي السديد ثم رفعت صوتها مترنمة بقول الشاعر

واني وان كنت الاخير زمانه   لآت بما لا تستطعه الاوائل

— اذا نستسمحك يا أماه في القيام لكى ندبر مأمرتي به ونسعى في نوال المراد .. قال ذلك الامير برقوق وانتصب قائما للذهاب فاجابته العجوز على مرامه وخرج ومعه احمد بن المدبر قاصدين الامير بابكيال وهما يتشاوران عن كيفية الانتقام ويدبران المكائد ومازالا هكذا في تصورات عقيمه وأفكار سقيمة حتي وصلا الي مركز الوزير الرسمى بالديوان الملوكى

فدخل عليه نجله وقبل يديه ثم جلس بجانبه وبعد برهة قال .. متي يكون السفر ياوالدي ؟

— فى أى وقت تريد وتختار

— اذا استحسن حضرة الوالد فيكون يوم السبت القادم لانه يوم مبروك والسفر فيه مسعود

— فليكن ذلك يا بني

— حينئذ فلأستعد واجهز لوازم الرحيل

— نعم استعد لانى سأخابر قائد الجيوش كى يجهز لك (أوردى) من الفرسان ليكون في خدمتك ويساعدك على أعمالك

ـ أظن يا حضرة الوالد لو كان الأوردى تحت قيادة عزيزي ابن طولون يكون اتم

ـ وأنا كنت مفتكرا ذلك ايضا لان ابن طولون شاب مستقيم مهذب وله مهارة تامة في تدبير الامور فضلا عن شجاعته في اقتحام الاخطار

فتمامل الامير برقوق من تلك الاوصاف واغتاظ من هذا المديح ولكنه اخفي انفعاله وقال بحماسة

ـ وانا قد فضلت مرافقته لهذا السبب وساصطحب احمد بن المدبر ايضا لانه لا يعزب عن خاطرك الشريف ما هو عليه من المهارة في فن الكتابة ودرايته بعلم الحساب

ـ فلما سمع الامير من نجله هذا الاقتراح سر سرورا عظيما خصوصا وقد بدت له من افكار نجله بارقة النجابة التي كان لا يتصورها فيه قبل الآن ولم يدر أن هذه النجابة نتيجة قضايا العشق الفاسد وستجر عليه ويلات المفاسد ويدهم نجيبها بنجب البلايا وبنحس طالعه ويكفهر جو مستقبله بالرزايا ولكن هي سلامة الجنان الابوى وباعث الاشفاق الفطرى قادت الوزير أعمى وخيلت له انه لم يكن في الامر معمي ففي الحال نادى بأحد الخدمة وناوله مظروفا بعد ان سطر فيه ما نصه

عزيزى الشهم الهمام والبطل الضرغام

حيث صدرت ارادة امير المؤمنين السنية بجعل الديار المصريه تحت تصرفنا وقد عزمنا على ارسال نجلنا الامير برقوق ليكون واليا على الخراج والاعمال الاداريه فالامل التنبيه على احدى الفرق العسكريه بالاستعداد لتقوم

بالشؤن العسكريه وليكن احمد بن طولون قائدها ومدير حركتها افندم

(بابكيال)

فاخذه الخادم وجد في السير حتى وصل ديوان الجهادية ومركز الاعمال الحربية وهناك سلمه للقائد العام ولما احتاط هذا بما حواه ارسل في الحال احد الفرسان بتذكرة يدعوبها الامير احمد بن طولون بعد أن حرر للوزير يقول

سيدي الامير الجليل ودولة الوزير الخطير

بنأ علي امركم السامي قد تنبه حالا علي الاوردى العاشر من الفرسان ليكون على اهبة السفر

وسيكون قائده أحمد بن طولون وحيث ان المذكور قائد من الدرجة الثالثه وبها لا يجوز استلامه قيادة أوردي كما هو معلوم فالامل ترقيته الي الدرجة الثانية اتماما للمرغوب أفندم (أبو الفتح)

ولما وصل هذا الخطاب ليد الوزير أصدر أمره حالا بترقية ابن طولون بعد ان صدق عليه من أمير المؤمنين وصار الامير ابن طولون من ساعتها قائد أوردي بعد ان كان قائد فرقة صغيرة وكانت عدة الاوردى ألفي جندى ورتبة رئيسه تعادل رتبة (أميرآلاي الآن) فسبحان الحنان المنان

واذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ماكان يعرف طيب عرف العود



—*﴿ الفصل الثامن ﴾*—

﴿ هيهات تكتم في الظلام مشاعل ﴾

ومن رام أمرا والخطوب مطية فما حيلة الانسان الا ركوبها
ومن سالم الايام في حين عسره وان لم تهن هانت عليه حروبها

في اليوم العاشر من شهر ذي القعده سنة (٢٥٤) كان القوم مترحلين جميعا على أهبة السفر حيث كنت تري خارج أسوار مدينة بغداد فرسان الاوردى العاشر مصطفة بأبهج ترتيب ونظام عجيب وأمامهم بطل روايتنا الغيور والشهم الجسور الامير أحمد بن طولون وهو ممتط صهوة جواد أدهم بغرة بيضاء كالدرهم وهو يتمايل عليه عجبا بما من الله عليه من الحسن والكمال والادب والجمال

وكم أبصرت من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري

غير انه أدرك الحيلة وما دبره أعداؤه له من المكائد ونصبوا من الاشراك والمصائد فكاد ان يتميز غيظا من أعدائه الذين خلقوا له هذا الذهاب ومفارقة الاحباب فسطر أنين مهجته وباعث حرقته على فرقته

تذكرت أيام الوصال بقربكم فهيج قلبي بالغرام لهيب
فوالله ما فارقتكم بارادتي ولكن تصريف الزمان غريب
سلام وتسليم وألف تحية عليكم واني مدنف وكئيب

وكان بجانبه الامير برقوق وهو على ظهر حجرة أصيلة ودرة يتيمة تتيه دلالا بما عليها من الجوهرات وبالقرب منه الغادر أحمد بن المدبر وهو لهلاك أحمد بن طولون يفكر وكان منظرهم في تلك اللحظة من

أغرب المناظر وجوههم باسمة وقلوبهم طافحة بالحقد والضغائن

والعين تعرف من عيني محدثها ... ان كان من حزبها أو من أعاديها

وفيما هم على هذه الهيئة اذا بالوزير بابكيال ومن خلفه الجم الغفير من ذوات وأعيان وموظفين وحكام حضروا للتشييع والتوديع

وبعد ان ألقيت الخطب الحماسية والمواعظ الادبية ختمت حفلة الوداع وهتفت الجند بالدعاء لامير المؤمنين وخليفة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

محمد سيد الكونين والثقليـ ... ـن والفريقين من عرب ومن عجم

فاق النبيين في خلق وفي خلق ... ولم يدانوه في علم ولا كرم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته ... لكل هول من الاهوال مقتحم

وبعد ان ارتدت تلك الجموع بعد تبادل التحيات الودادية اخذ الامير برقوق ومن معه في المسير قاصدين الديار المصريه وبر النيل السعيد

ما مثل مصر في الوري بلدة ... سكانها ترتع في نعيمها

نسيمها ألطف شيء في الوري ... وأهلها ألطف من نسيمها

ربما يكون القارىء قد ذهب عن خاطره أمر أحمد بن الواسطي خصوصا حيث لم يره مع الراحلين مع كونه كاتب الامير أحمد بن طولون ونديمه الوحيد

فنفيده بان سبب تخلفه عن رفقة الامير هو لداعي ملاحظة تلك العجوز الساحرة والبحث عنها حتى يتسني له قتلها جزاء أعمالها هذه الغير المحمودة ... لانه بمهارة هذا الفتى وحسن درايته تمكن في اقرب زمن من كشف دسائس تلك الخبيثة ووقف على جميع ما دبرته وأحاط بكنه دخائلها

ولا يستغرب القارىء من ذلك لان ابن الواسطي كان افرس اهل زمانه اماما

الصفة التي بواسطتها انجلت له حقيقة الامر هو انه بنزول الخادم لؤلؤ من قلعة علاء الدين قاصدا سيدته كما مر في غير هذا المكان في الحال استئذن من سيده الامير ابن طولون كي يبحث ويتجسس في مدينة بغداد ربما يعثر على من فعل بالسيدة جول تالك الافعال ورماها بمصائبه السحرية فصرح له ابن طولون بذلك لثقته من مهارة نديمه العزيز : وقد كان لا زال ابن الواسطي غير زيه بهيئة غير معروفة وركب جوادة قاطعا به الطريق حتى وصل المدينة ومن هناك عرج على نهر الدجلة بعد ان ترك الجواد بأحد الخانات

وبواسطة زورق استأجره قطع النهر وصار في البر الثاني وكان قصده من ذلك ملاحظة حركات الامير برقوق ليس الا حيث قوال لؤلؤ الخادم دخلت في مخيلته وحدثته نفسه بأن الفاعل هو نفس الامير برقوق نجل الامير بابكيال

ولما وجد في تلك الجهة التفت يمينا ويسارا فلمح بالبعد من دار الوزير قرية صغيرة متكونة من منازل بعض المزارعين فاتجه نحوها وما كاد ان يقربها حتي صادفه رجل فلاح يقود خلفه بقرته الصفراء العزيزة عنده فحياه ابن الواسطي وأجابه المسكين على تحيته بفرائص ترتعد وجلا اظنه انه احد محصلي الوزير جاء يطالبه بالايجار

وقد لحظ منه ذلك ابن الواسطي فتقرب نحوه بوجه بشوش وأخذ يلاطفه ويسوسه بألفاظ عذبة حتي اطمأن الفلاح وزال الوهم عنه حينئذ افهمه بقصده ولكن بطريقة غريبة دخلت على عقل هذا الرجل البسيط

اسوس بسيطا كي انال به قصدى فيسعى معى نحو المآرب يستجدى

وما ضرني ذلك البسيط بوهمه ولكنما سحر العجوز به وجدى

وكان ابن الواسطي أوراه بان سبب مجيئه لهذه الجهة هو بأمر من الوزير

بابكيال ولكن لملاحظة حركات نجله برقوق حيث بلغه ان اناسا من المفسدين اغروه على تعاطي المسكرات وفعل الموبقات وقد اتخذوا هذه الجهة مرتعا لهذه الافعال المذمومة

فصدقه ذلك الفلاح وعاهده على ان يخفي هذا الحديث حتى عن زوجته المحبوبة وقد تأبط ضيفه وذهب به الى قاعته وقد بات بها ابن الواسطى حتى اصبح الصباح وبرزت الشمس وانبعثت اشعتها الذهبية على تلك الحقول والغيطان فتكسب مزروعاتها نموا ورونقا بهيجا فخرج من الدار وتوغل في تلك المروج يستنشق نسيمها اللطيف وروائحها الزكيه ولكن كانت نواظره شاخصة على الدوام نحو دار الامير بابكيال

وبعد مضي ساعة زمانيه جلس بجوار جدول ماء مختفيا خلف شجرة سميكة بحيث يري غيره وهو لا يرى وبينما هو يقدح زناد فكرته معللا نفسه ببلوغ الارب اذ لمح ثلاثة اشباح خارجة من دار الوزير فخفق قلبه وحدثته نفسه بانه لا بد من وجود برقوق بين هؤلاء الاشباح حينئذ قام منتصبا وسار يتبعها الى ان اقتربت تلك الاشباح من تلول وبها اختفت عن نظره فجد في السير حتي وصل الي هذا المكان وتفرس فيه بدقة وبعد برهة عثر على باب دار صغيرة فأدرك بأنهم دخلوها ولكن خشي ولوجه فيها فيستشعر به من بهذا المكان فربما تسوء الرجمة وينعكس الامل ولا ينال اربا انما اخذ يدبر حيلة يستطلع بها اعمالهم وكنه ماهم عليه وما يعملون

فوقف قليلا ثم اقترح على نفسه ان يصعد فوق الاكمة المبنية تحتها الدار ربما يجد نافذة تمكنه من الاستطلاع على ما بداخلها ولقد أصابت

فكرته لان بصعوده على تلك الآكام بواسطة تسلقه على شجرة لمح نوافذ صغيرة فتطلع فى احداها فنظر الامير برقوق جالسا وبجانبه العجوز واما مهما احمد بن المدبر وهم يتحادثون ويتجادلون

فرقصت جوارحه طربا وكاد ان يصيح من عظم السرور ولكن ثبت جاشه وجلس يسترق السمع بسكوت . وكان حديث المذكورين بصوت كالعادة لثقتهم من عدم وجود خلافهم وبذا تمكن ابن الواسطي من سماع ما دار بينهم بدون مشقة ولا تعب . وغير خاف على اللبيب موضوع الحديث حيث مر ذكره بالفصل السالف

ولما عزم الامير برقوق ومن معه على القيام كان ابن الواسطى اسرع من لمح البصر حيث قفز فصار تحت الاكمه ومن شدة ما اعتراه من السرور صار يهرول بخطوات فوق العادة الي ان قرب من شاطيء الدجلة واستأجر زورقا أوصله شاطيء المدينه

ولما وصلها اتجه نحو الخان الذى ترك به جواده فامتطاه ولكزه بقدميه حتي صيره يحاكي هبوب الريح في مسيره . وهكذا ما زال في كرور كض لا يستريح الا مسافة تناول الطعام الي ان وصل قلعة علاء الدين فى زمن لا يتصور ان يقطعه خلافه مهما كان مجدا في السير

فتقابل مع الامير ابن طولون واطلعه على جلي الخبر واخبره بامر تدبيرهم على سفره الى الديار المصريه حتى بحيلهم ودسائسهم يتمكنون من قتله وتصبح السيدة جول فى قبضة يد الامير برقوق

فاهتز الامير غضبا وقال بعد ان شكر ابن الواسطى على تلك الهمة العاليه والمنة العظيمة وما الذى تراه ايها العزيز فى تلك المشكلة

— الذى اراه سفرك مع هؤلاء اللئام تحت شرط ان تخفى عدواتك وتورى انك غافل عن جميع مقاصدهم ونواياهم مع المحاذره والاحتراس من مكائدهم

— هذا هو قصدى وجل مرامى ايها الصديق وثق بان توكلى على الله عز وجل يضمن لى النصر عليهم ... ولكن كيف اترك حبيبة الفؤاد ومنية الروح بين يدى تلك العجوز الساحرة تقلبها على بساط آلامها السحريه

— اتركني هنا ايها الامير لتلك الخبيثة لكي أريها عاقبة افعالها المحرمة واقتلها شر قتلة وبذلك تستريح السيدة جول وتطمئن ايضا قلوبنا لانها منبع الدسائس ومفتاح الفتن

جزاء دساس المنايا منية   يصير بها بين القبور معفرا
هذي عجوزكم ارتنا مصائبا   دهتنا بها من غير أن تتدبرا

نعم لا يكون غير ذاك . وما كاد ابن طولون يتم جملته الاخيرة حتى سمع وقع اقدام فالتفت نحو الباب واذا به احد الرسل وبيده مظروف فتناوله منه وفضه وقرأ ما يأتي

حضرة احمد ابن طولون

بوصول هذا الطرفكم يلزم حضوركم حالا الي مركز الجند العمومى لصدور الاوامر اليك بقيادة الاوردى العاشر الذاهب رفقة الامير برقوق الي الديار المصريه   (أبو الفتح)

وبعد الفراغ من تلاوته التفت نحو ابن الواسطي قائلا . لقد تم تدبيرهم وهذا هو أمر السفر فما قولك ؟

قولي ! الاستعداد على السفر والنزول الى مدينة بغداد سويه فنستلم حضرتك لاوردي واستلم اناتلك العجوز ..... فلعلي أنال المراد والحقك قريبا بالديار المصريه وتلك الاقطار البهيه

فضحك الامير ابن طولون من كلام صاحبه وفي الحال استدعي بالجياد فركبوها .وأخذوا يقطعون الدروب والفلوات حتي وصلوا مدينة بغداد وهنالك ودعوا بعضهم البعض واخذ الصاحبان يزرفان الدمع مدرارا على هذا الفراق .

فارقت صحبي والضمير يئن من ألم النوى واليم شوق مستجن
لا كان يوم فراقهم ابدا فلا امن لدهر ذي غرور مستكن

ثم افترقا وكل منهما قصد وجهة المقصود ووصل الامير احمد بن طولون الديوان الملوكي ومركز القائد العام الرسمى فقوبل احسن مقابله وسلمه القائد ابو الفتح أمر الخليفة السامي بحضور ثلة من كبار القواد ومشاهير الابطال بعد ان هناه بهذا المنصب الجليل واوعده بزيادة الالتفات الملوكاني ما دام مثابرا على هذه الهمم العالية والشجاعة المشكورة

وكان أكثر الموجودين فرحا وسرورا عمه الامير ياركورج -- كيف لا -- وما خابت تربيته في ابن اخيه الذي حاز على صغر سنه درجة عالية ومكانة ساميه وشهرة فائقة صيرته محبوبا ومحترما عند الكبير والصغير ه فهكذا تكون التربية وهكذا عاقبة الاجتهاد

ما وهب الله لامرىء هبة افضل من عقله ومن ادبه
هما حياة الفتى فان فقدا ففقده للحياة أليق به

﴿ الفصل التاسع ﴾

﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾

غدا توفى النفوس ما كسبت　　ويحصد الزارعون مازرعوا

ان احسنوا احسنوا لانفسهم　　وان اساؤا فبئس ما صنعوا

بعد ان افترق احمد بن الواسطي من سيده ابن طولون استمر سائرا حتي وصل دار صاحبه الفلاح ومكث بها عدة اسابيع متربصا لتلك العجوز الغادرة . ترقبا انفرادها بتلك الدار الي ان كان ذات يوم لمحها وحيدة وهي تعدو بسرعة نحو الدار فاقتفى أثرها ولما دخلتها لم يمهلها تتوسط اول طرفة حتى فاجأها بخنجره الماضي وضربها ضربة ألقتها علي وجهها فاقدة الحواس خامدة الانفاس وقد ذهبت روحها الخبيثة الي جهنم وبئس القرار

مصارع البغي لها صولة　　تنكس السلطان عن عرشه

وتركها تتخبط فى دمائها وخرج مسرعا وهو ثمل بخمرة الانتصار حيث بلغ المراد وشفي غليل القلب وقد قصد دار الامير ياركورج ليبشر صديقه لؤلؤ ويحيط علمه بواقعة الحال . ولما وصل وأبصره لؤلؤ أخذه بالاحضان وضمه باشتياق وصار يسأله بعد ان اجلسه بغرفته الخصوصية قائلا .. أشكر الله على سلامتك ياصاحبي العزيز ولعل ان تكون تركت الامير ابن طولون بصحة كما نرغبه من صميم الفؤاد ونتمناه

فتبسم ابن الواسطي لعلمه بان لؤلؤ لا يدري شيئا مما حصل وأجابه . إني ياصديقي لم ار سيدي ابن طولون من منذ رحيله الى الديار المصريه

واسأل الباري عز وجل ان يكون وصلها بكمال الصحة وتمام العافيه

— عجباً ايها الاخ وهل لم تكن برفقته ؟

— بلي لم أذهب معه الى تلك الديار

— ولماذا ؟ . فدني لقدهيجت أشجاني وبلبلت أفكاري

فقص ابن الواسطي ما حدث من الابتداء الي الانتهاء ولؤلؤ يزداد عجبا واستغرابا ولكن سر لقتل العجوز واقسم ان يطلع الامير ياركوزج على هذه الرواية العجيبة والحكاية الغريبه

وفيما هما يتسامران ويتحادثان واذا بخادم جواد الامير ياركورج (السايس) دخل عليهما مهرولا والعرق يتناثر من جميع اعضائه فاستفسر لؤلؤ عن سبب مجيئه بهذه الكيفيه فاجابه الخادم بان الحادث مهم والخطب جلل لحدوث أنقلاب عظيم بقصر الخلافة وقد أرسله سيده ليدركه بعدة الحرب والطعان اذ ربما تحدث فتنة وتثور المدينة ويحصل مالا تحمد عقباه

ولما سمع لؤلؤ هذا الخبر أسرع هو وابن الواسطي نحو دار الخلافة لينظرا ما الخبر ويحققا هذا الحادث وذاك الخطر

— وكان السبب في هذا الاضطراب هو ان سماه بن صالح الوصيف حاجب الخليفه وخازنه لما رأى علو منزلة الوزير بابكيال عند الخليفه ومحبته المفرطة له حتى منحه النفوذ التام حصل له من الحسد والغيرة ما اشعل نيران الحقدوحرك لهيب الضغائن خصوصا من عهد ايابه الديار المصريه

كل العداوة قد ترجى أماتتها الا عداوة من عاداك من حسد

فأخذ يسعى نحو المهتدي بالله ابن عم الخليفة المعتز وبذل جهده في دس

الدسائس والقاء الفتن حتى نجحت مساعيه الشيطانيه ومكن بدهائه العداوة بينهما حيث أفهمه بان الخليفة ساع في حرمانه من وراثة الخلافه واعطائها لاحد انجاله وذلك بايماز الوزير بابكيال

فصدقه المهتدي بالله واتفق معه ومع بعض امراء الدولة ممن يكرهون الوزير بابكيال كالامير يار كورج وابو الفتح (وشبه البيكي) على خلع الخليفة المعتز .وقد ساعدهم على ذلك شيخ الاسلام وجماعة من العلماء

ولا يذهب بك العجب ايها القارىء كل مذهب فان المعاصرة حجاب والضغائن لقلوب أولي التقاطع جلباب يرث اخطارا ويلد خطوبا ويسبب حروبا ويحس الطوالع ويطمس شموس الامن السواطع فبئست الخليقة خليقة الضغن والحسد فانها تشق وتزيل اسباب السعادة وتمحو معالم الراحة وتهيج الباب الناس لا بأسباب غير النوايا التى يحدثها المكر السيىء ولكن لا يحيق الا بأهله

ولو تأمل المنصف في سبب انحطاطنا معشر المسلمين لم يجده سوى ان الموجب للانحطاط هو التخاذل المريب والتقاطع المريع وعدم اعتماد صوت الضمير المؤمن الذى ينادي بالولاء وكمال الوفاء والحباء ولكن هي الاقدار تعمي اذا تحتمت ولا راد لما قضى بارىء الليل والنهار

وبعد كثير المساعى تمكنوا من اسقاط المعتز الثالث عشر ومبايعة المهتدي بالله وكان ذلك في أوائل سنة ٢٥٥ هجريه بعد ان هاجت المدينه وماجت بمن فيها وقفلت الحوانيت وتحزبت الاحزاب ولولا حسن دراية الامير يار كورج وشجاعته التى ابرزها فى هذا اليوم المهول لحصلت ثورة كبري وفتنة جسيمه تعترض الراحة فتقطع اسبابها وترفع النقاب عن الشقاء الدائم

ولما جلس الخليفة المهتدى بالله على كرسى الخلافة أمر بالحجر على ابن عمه المعتز هو وعائلته بقصر أعد لذلك وسجن الوزير بابكيال مع تنصيب الامير ياركورج بدله وتسليمه خاتم الوزاره وكذا الديار المصريه التي كان قد وهبها الخليفة السالف لبابكيال ورحل ابنه اليها كما اسلفنا

تبا لها دنيا قليل متاعها   وتبا لدهر غائل الخطب هائل

فلما استتب الامن وساد انتظام أراد الوزير ياركورج ان يكتب لابن اخيه احمد بن طولون ويعلمه بما حصل ويجعله واليا عموميا على الديار المصريه فيدير شؤونها ويدبر أمورها ويعدل فيها ولا يظلم

هنا تسنت للؤلؤ فرصة لاظهار مافى ضميرة واحاطة سيده الامير ياركورج بتفاصيل الحوادث الماضية فدخل فى خلوة وقص بين يديه هذه الرواية الغريبه

فاستغرب الوزير من تلك الحكاية وتعجب من هذا الاتفاق وقام فأطلع الخليفة عليها فازداد غضبه على الوزير بابكيال وأصدر امرا بقتله وقتل نجله الامير برقوق ثم طلب من وزيره ياركورج ان يزف السيدة جول على ابن اخيه ويهبه الديار المصريه مع باقي أطرافها

فأجاب الوزير ياركورج وفى الحال جهز ابنته وارسلها الى الديار المصريه صحبة لؤلؤ واحمد بن الواسطي وبرفقتهم الاوردي التاسع تحت قيادة (شبه البيكى) لحراستها ولكى يساعد ابن طولون على تمكين سطوته وزيادة نفوزه وشوكته

مهجتي بالبشر قدنلت المنى   فاتركي يانفس انواع الفكر
وافرحي وقت التصافى قددنا   وزهى الانس سرورا وازدهر

وابشري بالنصر قد زال العنا ... وهلال الفوز لطفا قد سفر
زال بؤسي وسروري قد سنا ... فاسرعوا بي كي نرى وجه القمر

الفصل العاشر

﴿ ولكل مجتهد نصيب ﴾

فعسى الليالي ان تمن بنظمنا ... عقدا كما كنا عليه وأكملا
فلربما نثر الجمان تعمدا ... ليعاد أحسن في النظام واجملا

لما وصل الامير برقوق الي الديار المصرية واستقر علي تخت عاصمتها الذي كان مقره بمدينة الفسطاط (مصر القديمه) جعل احمد بن المدبر وكيلا عاما من قبله فتصرف المذكور بتلك الديار على حسب هواه مقدما مصلحته الخصوصيه على مصالح وحقوق الاهالي والبلاد مهتما بجمع الدرهم والدينار بحيث ابتدع من الضرائب بدعا اثقلت كاهل العباد وجعلتهم في اعظم ضيق وبلاء فضلا عن معاملتهم بالقسوة ومحاكمتهم بالظلم والجور حتي مجته القلوب وكرهته النفوس ودعت عليه الالسنة بالهلاك والدمار .

اما الامير احمد بن طولون فصار بضد تلك الخطه لانه بمجرد وصوله ابتعد عنهما جاعلا مركزه خارج الفسطاط بجهة تسمى (مدينة العسكر) واخذ يسعي بحكمته ودرايته في جذب القلوب نحوه واستمالة النفوس اليه حتى نجحت مقاصده في مدة وجيزة واحبه الامير والحقير وتمنوه واليا على البلاد

عامل الناس باخلاق الرضا　　تملك الاحرار من غير ثمن

فلما استشعر ابن المدبر بحركة ابن طولون واعماله الجارية ضده اخذ يسعي بدسائسه ومكائده ليتمكن من قتله والوقيعة به .. ولكن ابن طولون لم يمهله على ذلك بل علم بمقصده واحتاط مما تكنه سرائره

ومهما تكن عند امرىء من خليقة　　وان خالها تخفي على الناس تعلم

فصار يحافظ ويحاذر بواسطة انتقاله من جهة الي اخرى مظهرا المبالغة والتفتيش حتى انشغل اخيراً بمطاردة رجل يدعى ابراهيم بن محمد العلوى ويلقب بابن الصوفى كان قد شق عصا الطاعة واستولى على جزء كبير من الوجه القبلي

فرحل اليه ابن طولون بفرسانه ومحاربيه حتي تقوي عليه وبدد شمل عصابته وفرّق من بقي معه خارج الواحات

وفى اثناء رجوع ابن طولون بجيشه ظافرا منصورا قابلته الرسل مبشرين بقدوم احمد بن الواسطى ومن معه فتعجب ابن طولون وكاد ان يصاب بالجنون من عظم دهشته واستغرابه ولكن ثبت جاشه وسار بين مصدق ومكذب حتى قرب من مدينة العسكر فوجد احمد بن الواسطى ولؤلؤ ينتظرانه بفروغ صبر

وبعد المقابلات الوداديه وتقديم ما يليق من التحيه اطلعوه علي امر الخاينة واحاطوه بواقعة الحال فسر ابن طولون من هذا الانقلاب العجيب

ولما وصل مدينة العسكر وجد الاوردى التاسع ضاربا بجهالته به وشاغلا لها برجاله ودوابه وبين الخيام المضروبه لمح صيوانا من الحرير مزركشا بالذهب فخفق من رؤيته فؤاده وتحركت اشجانه لان به منية الروح وحبيبة القلب

قرينته السيده جول فانها احضرت صحبة أمينيه باسباب المسرات مجهزة لا يمنع من الدخول واليها بها مانع فدخل عليها الاصطوانه فحينما نظرته وقعت مغشيا عليها فلما افاقت من غشيتها وهو من دهشته ترامت عليه بوجدها فقابلها بتوقه وتبادل القلبان عبارات العتاب تارة وواجبات الود اخري حتي امتزجا وصارا كالشيء الواحد

اعانقها والنفس بعد مشوقة　　اليها وهل بعد العناق تدان
والثم فاها كي تزول صبابتي　　فيشتد ما القي من الهيجان

ولا تسل ايها القاري عن العوامل الحياميه والتاثيرات الغراميه التي امتلكت المحبوبين في تلك اللحظه من شدة الفرح الذي كاد ان يفتر سهما ويجعلهما صريعي الغرام ..... وفي الحقيقة يعجز اليراع ويقف القلم متحيرا في وصف منظر هذين العاشقين الولهين الذين التقيا بعد جفوة طويلة وشقة بعيدة فشوق متخزن والوصل في تمثيل فصوله متفنن

لم يخلق الرحمن احسن منظر　　من عاشقين علي فراش واحد
متعانقين عليهما حال الرضا　　متوسدين بمعصم وبساعد

ولما أصبح الصباح وأضاء الكريم بنوره الوضاح خرج ابن طولون الي صيوان الاستقبال وعقد مجلسا من الامراء والقواد ثم أمر ابن الواسطي بتلاوة فرمان التعين فتلاه بصوت جهور وما كاد ان يختمه حتى وقف الجمع تعظيما وهم في أعظم ارتياح من هذا التعيين الذي صادف أهله وجاء طبق المراد ولقد ارتفعت اصوات الجند بالدعاء لامير المؤمنين ونائبه الامير ابن طولون

(حق الهناء لمن طابت خلائقه　　فالصفو حالفه والعز ملتزم)

وبعد ذلك امر ابن طولون فرسان لاوردين بالاستعداد فلم تمض برهة حتي اصطفت الجنود وامتطى القواد صافنات الجياد وساروا وامامهم بطل روايتنا الهمام ووالي الديار تخفق على رأسه الاعلام العباسيه والرايات الاسلاميه

فلما قربوا من الفسطاط قابلهم امراء وعظماء البلاد وامامهم أحمد ابن المدبر تعظيما لقدومهم واحتراما لاستقبالهم ولما التقي الجمعان سأل الامير ابن طولون عن الامير برقوق حيث لم يره بين المحتفين فتقدم في الحال اليه ابن المدبر وتلفظ بأدب قائلا :

اعلم أيها الامير الجليل والشهم الخطير انه بمجرد وصول الاخبار الينا بتعيين جنابك واليا علينا قصدت الامير برقوق لاحيطه بذلك علما فوجدته مجندلا في وسط غرفته وبجانبه هذا — ثم ناوله مكتوبا واذا به

حيث ان الدهر انتقم والعدو احتكم والعز انصرم فقد صممت على الانتحار وعلى الدنيا السلام .... —

أموت شهيداً للمساوي والاثم	وأرحل مفتوناً فهذي غاية الجرم
فكم سولت تيك الغواية ما هوى	بنفسي في تلك المهامه بالاثم
فمثل اخي حالة السوء وانتقد	وحاذر فاني فاقد امل اسمي
تمكن مني الخدع حتى أمانني	واوقعني في هفوة الموت بالغم
فأين عجوز السوء حتي ترى الذي	فقدت به فخر الحياتين والحكم
فلا ذنب للانسان الا جناية	هي العشق عفواً أو بلا حزم
شربت لكأس الموت من يدي التى	جنت وتمدت طوزها الحكمي
ألا فمزيز القوم برقوق ذل في	تموقه فوق ابن طولون ذي العزم

تأمل ولا تحسن ظنونك بالدنا　　فجل الله العالمين بما يحمي

فبكي بن طولون عند تلاوة هذا الخطاب وتأسف غاية الاسف لانه كان صافي النية حسن السريرة وكان مصمما على اكرامه وتعزيزه ولكن سبق السيف العزل .

نويت له بالاكرام رغم عداته　　ولكن ربي منصف فأماته

ولما وصل الفسطاط وجلس على تخت الاحكام جعل بن الواسطي كاتبه ووزيره ولؤلؤ حاجبه ومستشاره وابن المدبر لم يمسه بسوء بل جعله مديرا علي الخراج ولكن بعد ان ابطل كثيراً من الضرائب والعوائد

وهكذا صفى له الزمان وطابت الاوقات ورزق بالبنين وصار في اعظم ما يكون فسبحان الذي يقول للشيء كن فيكون

حوادث أجيال تجلت لناظري　　فوائد اسيار تتالت لسافر

رواية اعصار توات بحاضر　　تأمل تجدها غنية لحاضري

ففيه حديث قد روته خواطري　　عن ابن طولون الهمام الغابر

فيه السلامة للسمي وفضله　　يرويه أحمد عن سلالة طاهر

يرجو به عفو الاله وفضله　　فاختم له بالخير ياغافري .

❀❀

﴿ تذييل الروايه وفصل الختام ﴾

نؤمل دنيا لنبقى بها　　وتأتي المنية دون الأمل

استمر الامير ابن طولون واليا على الديار المصرية محبوبا عند الامير والحقير حتى عظم أمره وقويت سلطته وازداد نفوذه فطمع بالملك

خصوصا وقد لاح له اضمحلال شوكة الدولة العباسية وزوال ملكها ودعا نفسه خليفة وسلطانا على الديار المصرية مؤسسا بها الدولة الطولينية وذلك فى خلافة المعتمد على الله سنة (٢٥٧) هجريه

وأول مشروع قام به تأسيس مدينة سماها (القطائع الطولينية) بالقرب من مدينة الفسطاط مابين مدينة العسكر وجبل المقطم حيث خطط فيها قصرا جميلا جسيما امامه ميدان فسيح وتد اقتدى به جميع الامراء والقواد حتي صارت تلك الجهة مدينة عظيمة جملتها كرسي الخلافة وعاصمة البلاد بعد ان كانت مدافن للنصاري ومقابر لليهود

وشيد بها جامعا كبيرا على قمة الجبل في جهة تدعى (تنور فرعون) ومستشفى — قيل انها أول مستشفى أسست بمصر — وحصنا متينا وعدة تكايا للفقراء واسبلة (محلات لشرب الماء مجانا) وحدائق عجيبة حتي اتصلت تلك الجهة من كثرة البناء بمدينة الفسطاط وأنشأ ماينوف عن المائة سفينة حربية ونظم عشرين أورديا من الجند والفرسان وأكثر من شراء المماليك حتي كثرت حاشيته وهابه القريب والبعيد

وفى سنة (٢٥٨) شقت أهالي برقه عصا الطاعه فبعث اليها لؤلؤا حاجبه بجيش فحاربها وأخضعها فكافأه بجعله واليا عليها

وفي سنة (٢٦٣) بني جامعا آخر وأبدع في صنعته وتزيينه وهو الذي يوجد لدينا بعض آثاره الى الآن — قيل انه صرف على بنائه مائة وعشرين ألف دينار — وبعد بناء هذا الجامع توفى (ماجور) والي الشام فاغتنم الفرصة الامير ابن طولون وسار الى الشام بعد ان أخلف على مصر ابنه العباس ولصغر سنه عهد بتدبير الاحكام الى وزيره أحمد بن الواسطي

ولما وصل بجيشه الجرار لقيه ابن اماجور مطيعا فأقره على مركزه وسار الي حمص فملكها عنوة ثم حلب وطرسوس وانطاكيا وبعض مدن صغيره وفيما هو مشغول بفتح تلك البلاد بلغه عصيان نجله وفراره بجميع الاموال الي (برقه) فلم يكترث بذلك بل استمر على اعماله حتى أتمها وبعدها رجع الي مصر وسير جيشا للقبض على نجله ففر هذا الى افريقيا ولكن لم يمكث زمنا حتي قبض عليه واحضر بين يدي والده ولحنوه المفرط وحبه الزائد عفي عنه بعد ان قتل جميع من اغروه على هذا الطغيان

وفي سنة (٢٦٩) بلغه عصيان نائبه بطرسوس فذهب اليه وحاصره وضايقه حتي قبض عليه وقتله وفي اثناء رجوعه عرج علي انطاكيا فمرض بها ومات وكان ذلك في سنة (٢٧٠) ونقلت جثته الى مصر ودفن بسفح جبل المقطم تاركا من الاولاد ثلاثين بين ذكور واناث

ولموته حزن عموم اهالي الديار المصريه والشاميه لانه كان شجاعا عاقلا عادلا حسن السيرة صادق الطويه محبا للعلم واهله متقربا من الفقراء معدا لهم مائدة كبيرة كل يوم فضلا عن الف دينار وكسور يتصدق بها شهريا حتى لقبوه بحاتم مصر

وتولى بعده أبنه (خمارويه) ولكن كان مولعا بجمع الطيور واصناف الحيوانات غارقا في بحار اللذات مائلا الي الشهوات وقد مكث اثني عشر عاما حاكما وأخيرا قام عليه القواد فقتلوه سنة (٢٨٢) وولوا مكانه ابنه (هارون) ولصغر سنه ضعفت الاحكام وانكسرت شوكة الدولة الطولونية فقام عليه عمه المدعو (شيبان) وقتله وتولى على الديار في شهر صفر سنة ٢٩٢ هجريه

وفي السنة المذكوره ارسل المكتفى بالله بن المعتضد جيشا جرارا تحت قيادة محمد بن سليمان فانتصر على شيبان المذكور وقتله ودخل الديار المصرية واستولي عليها وأعاد الخطبة باسم الخليفة المكتفى بالله وبذلك رجعت تحت تصرف بني العباس ثانيا وزالت دولة بني طولون بعد ان تمالكت نيفاً و (٣٧) سنة فسبحان الحي القيوم

فمن يك شيئا ضاع من بعد اهله لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبكي بني طولون اذا باد عصرهم فبورك من دهر وبورك من مصر

﴿ انتهى ﴾

يقول راجي عفو ربه احمد حقي بن المرحوم محمد افندى فريد بن المرحوم مصطفى افندى لامعي بن المرحوم على افندى الكريدلي لقد تم بعون الله هذا الكتاب فى ظل الحضرة الفخيمة الخديوية أدام الله عزها وخلد ملكها ورزق الجامعة الاسلاميه والامة المحمديه الاعتصام بحبل الله والتمسك بما كان عليه رسول الله مع اصحابه من جمع الكلمة والمحافظة علي معزة الاسلام ونصرة الله وحقق دوام حسن الرابطة بين جميع الممالك الاسلاميه وبعث في ضمائر اعاظمها واغنيائها وعلمائها وصلحائها التوادد والتراحم فيما بينهم والحمية والغيرة علي حفظ الوطن من مساس اليد الاجنبية انه كريم مجيب وقادر مقتدر قريب آمين

قد ورد الينا هذا التقريظ من حضرة العالم الفاضل الشيخ محمد الخيامى صاحب العدالة ومطبعة النهج القويم وهاهو نصه

الحمد لله وحده أما بعد فمن امعن النظر فى هذا الكتاب ومزوياته الحسان الجامعة مابين الميادين الغراميه والشؤن الحماسية والنبذ التاريخيه والنقط السياسيه واجهد الفكر في التامل لما يذكر فيه من المناسبات الادبيه نثرا ونظما لا يسعه الا الاعتراف بعظيم الفضل لحضرة صاحبه وجامعه ومؤلفه الفاضل والشاب المهذب الكامل احمد افندي حقى نجل الطيب الذكر المرحوم محمد أفندى فريد ولاغرو فانه المعلوم بين اخوانه بجودة القريحة وحسن التحرير ومزيد الاصلاح اكثر الله من امثاله فى بني الوطن ووجه عناية الجميع الي تعضيد العلوم والمعارف المهذبة للاخلاق والمربية للارواح علي محو التكاسل والخمول والعمل على سنن الجد والاجتهاد آمين يارب العالمين

صاحب العداله

محمد خيامى

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب الجليل في منتصف شهر محرم سنة ١٣١٦ هجريه الموافق ٤ شهر يونيو سنة ١٨٩٨ ميلادية

